كتاب البلدان

لعمرو بن بحر الجاحظ

نشره مع مقدمة وتعليقات

الدكتور صالح احمد العلي

مستلة من مجلة كلية الآداب

مطبعة الحكومة ـ بغداد

١٩٧٠

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

الجاحظ وكتابه في البلدان

الدكتور صالح احمد العلي

لا ريب ان ابا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ جدير بما أشغله في تاريخ الفكر العربي من مكانة بارزة اكتسبها بفضل الثروة الفكرية العظيمة التي اضافها سواء في ما ابدعه من صور فنية وتعبيرات ادبية اغنت الاحساس وهذبت المشاعر ،او بما عالجه من قضايا ادبية وفلسفية وعقائدية وما اورده من تحليلات واحكام اثارت التفكير واغنت العقل ، او بما سجله من حوادث تتصل بالافراد والمجتمعات والدول ثبتت او صلحت اوبينت كثيراً من من معلوماتنا التاريخية ، واخيراً بما قدمه من اوصاف غنية قائمة على الملاحظات الشخصية الدقيقة لعدد كبير من المؤسسات والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية • والحق اننا لا نجد في تاريخ الفكر الاسلامي رجلا استوعبت مؤلفاته ما استوعبته مؤلفات الجاحظ من جوانب الحياة المتعددة في عصره •

وقد قدر الناس منذ القديم الثروة الادبية الهائلة التي تضمها بعض كتب الجاحظ ، فكان عندهم كتاب البيان والتبيين احد الكتب الاربعة الاساسية في تعليم الادب ، كما يقول ابن خلدون ، اما مؤلفاته في العقائد فقد كانت مصدراً تدارسه المهتمون بهذا الميدان من الفكر ، وتناولوه بالتأييد او المناقشة او النقض ، ونقلوا مما جاء في كثير منها نصوصاً تتفاوت في طولها ، من جمل قصيرة الى نقول كاملة لبعضها • ولعل اجلى انموذج في هذا الميدان هو كتابه العثمانية الذي اوضح فيه وجهة نظر مؤيدي الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وجره ذلك الى شرح وجهة نظر الامويين والتعريض بالعلويين ونقض بعض حججهم ، الامر الذي اثار عليه خصوم العثمانية والاموية ، فتناول الكتاب بالنقد عدد غير قليل من مفكري العصور الوسطى الاسلامية ، ونقلوا منه نصوصاً غير قليلة استوعبت بعضها لكتاب كله تقريباً •

واذا كان للجاحظ اسلوب ادبي خاص مميز يمكن ان يلمسه المرء في كل كتاباته ، فان المادة او المعلومات والتعليلات التي اوردها عن كل موضوع تتباين في كميتها وعمقها • ولا شك في ان اهمية هذه المادة وطرافة تعليلاتها اثارت اهتمام المفكرين بها وتدارسهم لها ، مما ادى ، بدوره ، الى اضافة معلومات وادلة جديدة على ما جاء فيها ، وتعديلها وعرضها باشكال اوضح واكثر ملائمة للاذواق الفكرية التي سادت في الحقب التالية لعصر الجاحظ ،

وقد ادى هذا الى تناقص اهتمام الناس بنسخ الكتب التي تدخل في هـذا المضمار ، بالرغم من اهميتها في معالجة المشاكل ، او في وصف الواقع او تسجيل الافكار التي كانت سائدة في زمنـه ، وبالرغم من قيمتها الفكرية في استثارة المفكرين وتوجيه اهتمامهم الى دراسة تلك المشاكل . ان هذا يفسر سبب فقدان كثير من كتب الجاحظ ، وقلة النسخ المخطوطة الباقية منها .

ليس من السهل ضبط قائمة الكتب التي الفها الجاحظ . فمع انه كان يشير في كتبه المتأخرة الى بعض مؤلفاته الاولى ، وانه اورد في مقدمة كتابه « الحيوان » قائمة واسعة بمؤلفـاته وان لهذه الاشـارات اهمية في تثبيت مؤلفاته وتمييزها عن المدسوس عليه ، الا انه لا يمكن اعتبارها كاملة ، لانها لم تشمل كل كتبه ، بما في ذلك القائمة الواسعة التي ذكرها في كتابه الحيوان لاننا لانمتلك الدليل القاطع على انه استوعب فيها كل ما الف وانه لم يؤلف بعد « الحيوان » كتاباً .

وجدير بالملاحظة ان الجاحظ يعترف نفسه بانه كان يؤلف كتباًوينسبها الى غيره لان بعض اهل العلم كانوا يتواطأون على الطعن في المؤلفـات التي ينسبها الى نفسـه ويقبلون على الكتـب التي يؤلفها اذا كانت منسوبة الى غيره او المتقدمين على عصره (انظر فصل ما بين العداوة والحسد من رسائل الجاحظ ١/٣٥٠ ــ ٣٥١ طبعه عبدالسـلام هارون ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٦٦) ولا بد ان هذا الوضع كان ينطبق على اوائل حيـاته في التأليف حين لم يكن قد اكتسب الشهرة ، اما بعد ان اشتهر و رسخت مكانته ، فقد كان المجال لحدوث العكس ، اي ان ينسب الناس اليه مؤلفات لم ينتجها بالفعل ، ولعل من اكبر العقبـات التي تعترض محاولة اعداد قـائمة كاملة بمؤلفاته ، مع ضبط عنوان كل منها ، هو ان الكتب كـانت تنتشر بالنسخ لا بالطباعة ، ولم يكن يقيد النساخ قانون يجبرهم على ضبط ما ينسخون او الحفاظ على الاصل الذي ينسخونه ، يضاف الى ذلك ان النسخ يستلزم جهداً ومـالا ، وهذا يؤدي الى ان تكون النسخ محدودة العدد ، وليست جميعها في سوية واحدة من الدقة ،كما ان كثيراً من المؤلفات التي لم تلائم اذواق الناس لم تحض بالانتشـار ، والواقع انه بالرغم من المكانة العظيمة للجاحظ ، فان الاغلبية المطلقة لكتبه فقدت او لم تبق منها الا نسخة واحـدة او نسخ محدودة جداً . ولكننا نستطيع البت في مؤلفاته على اساس قوائم

الكتب التي روى المؤرخون انه الفها ، او ما ذكروه له من كتب منفردة وما اقتطفوه من مؤلفاته .

ان اقدم قائمة واسعة وصلتنا عن مؤلفات الجاحظ هي التي اوردها ياقوت الحموي في كتابه « ارشاد الأريب » المشهور باسم « معجم الادباء » (٧/٧٦ — ٧٧ طبعه مارجليوث—١٦/١٠٨ طبعه الرفاعي) ، ويبدو من اشارة لياقوت عن احد هذه المؤلفات انـه نقلها عن محمـد بن اسحق ابن النديم ، غير ان طبعتي فلوجل والقاهرة المتداولتين لكتاب الفهرست لابن النديم ليس فيها عن الجاحظ فصل خـاص او قائمة مؤلفـاته ، ممـا يدل على نقص هاتين الطبعتين .

وقد قام عدد من العلماء المحدثين باعـداد قائمة لمؤلفـات الجاحـظ اعتمدوا فيهـا على ما ذكره ياقوت وما اشـار اليه الجـاحظ نفسه وبقية المؤلفين العرب القدماء ، وما هو مذكور في فهارس المخطوطات والمطبوعات للمكتبات الشرقية والغربية ، ولا ريب ان من اكمل هذه القوائم الحديثة هي التي اوردها بروكلمان في كتابه العظيم«تاريخ الادب العربي» ونشر المرحوم عبدالحليم النجـار الترجمة العربية لاقسـامه الاولى ، بما فيها الكلام عن الجاحظ . والقائمة الثانية الجديرة بالتقدير لكتبه هي التي نشرها المستشرق الفرنسي شارل بيللا في العدد الثاني من المجلد الثالث من مجلة Arabica اما القائمة التي اوردهـا السيد حسن السندوبي في كتابه أدب الجـاحظ (القاهرة ١٩٣١) فهي مرتبة حسب احرف الهجاء وغير مستوفاة . وقد اعد الاستاذ طه الحاجري في كتابه « الجاحظ حياته وآثاره » قائمة كتبه مرتبة حسب زمن كتابتها كما يرى ، وحلل محتويات كل رسالة .

ويتبين مما بقي من هذه المؤلفات ، ان كتب الجاحظ تختلف في حجمها ، فبعضها كبير مستوعب عدة مجلدات ، وبعضها صغير لا يتجاوز عدداً محدوداً من الصفحات ، ومع تباين مواضيعها الا انها من حيث العموم تتسم بالطابع الخاص المميز لاسلوب الجاحظ ، وهناك بعض النصوص التي يكررها الجاحظ في اكثر من مؤلف ، ولعل هاتين السمتين : الاسلوب وتكـرر النصوص من اوثق المعايير التي يصح الاعتماد عليها في تمييز كتب الجاحظ .

ويتجلى من مؤلفات الجاحظ انه كان انسانياً واجتماعياً ، اي انه اهتم بجوانب مختلفة مما يتعلق بالانسان الذي يعيش في المجتمع ، ويتجلى هذا الاهتمام حتى في المؤلفات التي يدل عنوانها على ضعف صلتها بحياة الانسان ،

فكتابه الكبير عن الحيوان يحتوي من المعلومات عن البشر والقبائل والقضايا الفكرية التي تشغل بال الانسان ، اكثر بكثير مما يحتويه من مادة خاصة بالحيوان .

وقد تناول الجاحظ جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية المتعددة الجوانب في عصره ، فالف في معظم هذه الجوانب رسائل خاصة ، ولما كان الانتاج الادبي ، والجدل السياسي من ابرز مظاهر حياة المجتمع ، فقد خص الجاحظ كلا منهما باكثر من رسالة .

ان من ابرز مظاهر الحياة الاجتماعية هو الاستيطان في مراكز معينة يمارس فيها الانسان نشاطه الاجتماعي والاقتصادي والفكري ، ولا يمكن ان تزدهر المدنية او تنمو الحضارة بغير هذا الاستيطان . وقد ادرك الجاحظ هذه الحقيقة فالف كتاب « الحنين الى الاوطان » الذي نشره الاستاذ عبدالسلام محمد هارون ضمن مجموعة « رسائل الجاحظ » وقد اورد فيه الجاحظ عدداً من النصوص الادبية والشعرية التي تبين ميل الناس الى التوطن ، وحبهم للوطن الاول ، ذلك الحب الذي يدفع الناس الى المقام في اماكن فيها كل ما يجعل الحياة الانسانية صعبة .

والتوطن لا يقتصر على مكان معين او جهة خاصة ، بل يعم كل ارجاء المعمورة ، بل حتى البدو الرحل ، لهم دارات تختص بكل منها عشيرة تقيم فيها وتنتقل ضمن نطاقها ، غير ان ابرز مكان للتوطن هو المدن ، فلا عجب ان تلفت المدن نظر الجاحظ ، خاصة وان اطلاعه الواسع على الانتاج الفكري العالمي وخبراته العميقة المستمدة من مدينة البصرة ، وهي الميناء التجاري الذي يتصل بمعظم اطراف المعمورة ، يضاف الى ذلك اهتمام اهل البصرة بالتجارة ، وقيامهم بها حتى قال الجاحظ « ليس في الارض بلدة واسعة ولا بادية شاسعة ولا طرف من اطراف الدنيا الا وانت واجد به البصري والمدني » (البخلاء ١٦٠) وقال الهمداني « وابعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري ، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الاقصى فلا بد ان يرى فيهما بصرياً او حميرياً » (البلدان ٥١) . وليس من الغريب امام هذه الاهمية للمدن والاطلاع الواسع للجاحظ ان يكون كتابه عن المدن ضخماً .

لقد وردت اشارات في بعض الكتب تشير الى ان الجاحظ الف في البلدان ، ولكنهم اختلفوا في اسم الكتاب ، كما اشار عدد من المؤلفين ، وخاصة في وصف

البلدان ، الى كتاب الجاحظ هذا ، والمح بعضهم الى محتوى هذا الكتاب وقيمته دون ان يصرحوا باسمه .

فقد ذكر ياقوت في قائمة كتب الجاحظ التي اوردها في ارشاد الاريب كتابا اسمه كتاب البلدان (٦/٧٧ ــ ١٦/١٨) ؛ كما ذكر في معجم البلدان كتاب البلدان للجاحظ واقتطف منه نصاً (٢/٥٩٣) .

وذكر المسعودي في مروج الذهب كتاب الجاحظ (المترجم بكتاب الامصار المقدسي كتاب الامصار (احسن التقاسيم ص ٥) وكذلك ابن نباته في (سرح العيون ص ١٣٤) .

وذكر المسعودي في مروج الذهب كتاب الجاحظ (المترجم بكتاب الامصار وعجائب البلدان) (١/٢٠٦ طبعه مينارد ــ ١/١١٣ طبعه بيللا) وسمـــاه في التنبيه والاشراف « الاخبار عن الامصار وعجائب البلدان » (٤٩) .

وقـــد ابدى كل من المسعودي والمقدسي وابن حوقل رأيه في الكتـــاب واهميته .

فاما رأي المسعودي فان معظم نسخ مروج الذهب تذكر قوله عن الجاحظ « في كتابه المترجم بكتاب الامصار وعجائب البلدان وهو كتاب في نهاية الحسن وان كان الرجل لم يسلك البحار ، ولا اكثر الاسفار ، ولا تقرى الممالك والامصار» (١/٢٠٦ ــ ١/١١٣) غير ان بيللا في طبعته الجديدة للمروج يشير في الهامش الى ان النسخة التيمورية تذكر « وهو كتاب في نهاية الغثاثة لان الرجل لم يسلك البحار ، ولا اكثر الاسفار ، ولا تقرى الممالك والامصار ، وانما كان حـــاطب ليل ينقل من كتب الوراقين » .

اما المقدسي فيقول « واما الجاحظ وابن خرداذبه فان كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما كبير فائدة » (احسن التقاسيم ٤ــ٥) ويذكر ايضاً « واه كتاب الامصار للجاحظ (في النص للجاحظ وهو خطأ) فصغير » (ص٥) .

واما ابن حوقل فيذكر ان الجاحظ له « كتاب نفيس له في الامصـــار » (صورة الارض ٦٦) .

ان هذه الاختلافات في التسميات دفعت ، فيما يظهر ، بروكلمان الى ان يذكر للجاحظ كتابين منفصلين في الجغرافية ، وقد ذكرهما في مكانين متباينين (ص١٢٠ ، ١٢٥) ففي الصحيفة ١٢٠ يذكر «٥٩ كتاب الاوطان والبلدان يتحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ويذكر طـــابع الســـكان في تلك البلدان : المتحف البريطاني ثاني ١١٢٩ : ١٥ ويذكر في ص ١٢٥ ضمن كتبه

المفقودة « ٩٠ كتاب الامصار وعجـائب البلدان : ذمه المسعودي في مروج الذهب (نشر باريس) ٢٠٦/١ انظر تحفة الالباب لابي حامد في ومن هذا الكتـاب وصف المسجد الاموي عند يـاقوت في معجم البلدان ٥٩٣/٢ س ٧ فما بعده » •

ويؤيد هذا الزعم ان المسعودي ينقل من كتاب الامصار وعجائب البلدان زعم الجـاحظ ان نهر مهـران السند من نيل مصر (مروج ٢٠٦/١ التنبيه والاشراف ص ٤٩) (وقد اشار البيروني الى رأي الجـاحظ هذا دون ان يذكر اسم الكتاب الذي اورد فيه الجاحظ رأيه بل اكتفى بالقول « ويوجد التماسيح في انهار الهند كما هي بالنيل حتى ظن الجاحظ بسلامة قلبه وبعده عن معرفة مجاري الانهار وصور البحـار ان نهر مهران شعبة من النيل » (تحقيق ما للهند ص ١٦٣ طبعة حيدر آباد) وهذا النص لا يرد في مخطوطه الاوطان والبلدان • ولكن يجدر ان نذكر ان ياقوتاً ذكر انه نقل عن كتاب البلدان للجاحظ ، وليس عن كتاب الامصار وعجائب البلدان •

ويقول حسن حسني عبدالوهاب « على ان التبصر بالتجارة ليس باول كتاب للجاحظ لم يذكر من بين مؤلفاته ، فان «خصائص البلدان له» وهو غير كتاب « البلدان » ولم يرد اسمه بعد في قائمة ما نسب اليه ياقوت في معجمه وقد نقل عنه ابو منصور الثعالبي كثيراً » (مقدمة التبصر بالتجارة ص ٤) فكأن السيد حسن حسني عبـدالوهاب لا يـرى ان للجاحـظ كتاباً اسمه الامصار •

ويعتبر السيد حسن السندوبي كتاب الامصار وكتاب البلدان واحداً (ادب الجاحظ ١٢٤ ـــ ١٢٥)اما الاستاذ طه الحاجري فقد اعتبرهما كتـاباً واحداً مختلفة اسماؤه (٣٨٩ فما بعد)واعتبر الجاحظ رائد الكتاب في البلدان•

ويقول كراتشوفسكي « اما مصنف الجـاحظ في الجغرافية فلم يعثر عليـه الى الآن ، ومن ثم فليس من الممكن الحكم عليـه الا ممـا نقله عنه الآخرون ، اضف الى هذا ان عنوانه غير معروف لنا بالضبط ، ولعل اقربها الى الصحة هو العنوان الذي يورده المسعودي وهو كتاب الامصار وعجائب البلدان ، ويقابلنا احياناً عنوان « كتاب البلدان » و « كتاب الامصـار » اما الشذرة المحفوظة في احدى مخطوطات المتحف البريطـاني فتحمل اسم كتـاب « الاوطـان والبلدان » وهو عنوان لايقرب كثيراً من الحقيقة » (الادب الجغرافي ١٢٨/١) ويستشف مـن كـلام كراتشوفسكي هـذا ان

مخطوطة المتحف البريطاني هي غير كتاب الامصار وعجائب البلدان التي اشار اليها المسعودي •

اما شارل بيللا فانه في مقاله الذي اشرنا اليه عن كتب الجاحظ يذكر كتاب البلدان ويدون الاشارات التي وردت عنه ثم يضيف «عنوان هذا الكتاب» ويضع مشكلة لا يبدو انها صعبة • يميز بين كتاب البلدان ، وكتاب الامصار وعجائب البلدان ؛ اما حاجي خليفة وحسن حسني عبدالوهاب فيعتبرانه كتاباً واحداً ، اما السندوبي فيقول ان الجاحظ لم يكتب الا كتاباً واحداً هو كتاب البلدان (ص ٥٣٥) فكأن بيللا يميل الى القول بان للجاحظ كتاباً واحداً في البلدان •

وتضم مكتبة المتحف البريطاني كتاباً رقمه ؟ عنوانه « مجموعة من رسائل الجاحظ » من اختيار عبيدالله بن حسان وكاتبها عبدالله المنصوري • وفي اواسط الصفحة اليسرى من الورقة ١٩٩ مكتوب « فصل من صدر كتابه في الاوطان والبلدان » ، وهو بداية فصول مختلفة في الطول مأخوذة من هذا الكتاب• ويمتد النقل منه الى اواسط الصحيفة اليمنى من الورقة ٢٢٢ ،فهو كتاب من ثلاث واربعين صحيفة،في كل صحيفة حوالي سبعة عشر سطراً يتكون كل سطر من حوالي سبع كلمات مكتوبة بخط واضح ، وان لم تخل من التحريف •

وقد اشار الاستاذ كراتشوفسكي في كتابه « تاريخ الادب الجغرافي عند العرب (ج ١ ص ١٤٧ هامش ٤٢) الى نسخة اخرى في دار الكتب المصرية (ادب ١٨٤٤ ورقة ٣٩ أ ــ ٥٣ أ نسخة من مخطوطة ٤٠٣ هـ) ، وهي جزء من « منتخبات من رسائل عمرو بن بحر الجاحظ » وقد حصلت على نسخة منها كتبها لي بواسطة تلميذي شاكر محمود ، سيد حسن عشماوي بقسم المخطوطات بدار الكتب ؛ ولم يذكر لي وصفاً لاصل المخطوط الذي لم اجده في فهرست دار الكتب المطبوع ، وهي تبدأ من الورقة ١٤٠ ب وتنتهي بالورقة ١٥٣ ب •

ويتبين من مقارنة النسختين انهما متطابقتان، ما عدا اختلافات قليلة ثانوية في قراءة بعض الكلمات،ولا استطيع الجزم فيما اذا كانت هذه الاختلافات ترجع الى الاصل ام الى النسخة ؛وهي لا تؤثر في البحث • ولما كانت نسخة المتحف البريطاني التي في متناولي هي مصورة ، لذلك سأعتمد على صفحاتها في وصف المخطوط •

تبدأ الرسالة بفصل يبلغ حوالي سبع صفحات عن ميل النـاس الى الاستقرار ومزايا حب الوطن ، يتلوه فصلان يبلغ كل منهما حوالي صحيفة في الموضوع نفسه •

ثم يتلو ذلك فصل من اربع صفحات عن خصائص قريش ، ففصل من ثلاث صفحات عن البيت الحرام ، ففصل اكثر من سبع صفحات عن خصائص آل ابي طالب من بني هـاشم ، ثم فصل من اربع صفحـات عن خصائص قريش وفي آخرها كلام عن اخلاق اصحاب بعض الحرف •

ثم يتلو ذلك فصل من اكثر من صحيفتين عن المدينة ، وفصل من اكثر من صحيفتين عن مصر ، ثم فصل من سبعة اسطر عن خراج مصر ، ففصل من خمسة اسطر عن خصـائص المغرب ، ثم فصل من ثمـانية اسطر عن تغيير الاهواز للناس •

ثم يتلو ذلك فصل من ثلاثة اسطر يشمل نصاً عن الكوفة والبصرة ، ثم فصل من حوالي صحيفتين عن ماء دجلة والفرات ،يتبعه فصـل مكون من صحيفة عن بعض ابنية البصرة ،ويتلو ذلك فصل من خمس صفحـات يبحث فيه ماء البصرة وسمادها ويقارنها بالكوفة ثم يتلو ذلك فصل من حوالي صحيفتين عن فوائد البحر والبطيحة للبصرة ،ويختم ذلك بفصل مكون من سبعة اسطر عن الحيرة •

ويتلو هذا فصل من صدر رسالة للجاحـظ في البلاغـة والايجـاز ،

وقد اشار المؤلف فيالمخطوطة الى انه الف الكتاب بعد مائة وستة عشرة سنة من ملك بني هاشم الثاني ، اي تأسيس الدولة العباسية ، فيكون تأليفه قد تم سنة ٢٤٨ هـ ، اي في اواخر حياة الجاحظ (الذي توفى سنة ٢٥٤ هـ) • فهذا الكتاب من اواخر كتب الجاحظ ، وقد اشار فيه الى عدد من مؤلفاته ، وهي كتاب « الحنين الى الاوطان » وكتاب « الخصال التي بانت بها العرب عن العجم » و « كتابه الذي فرق فيه بين خصال بني عبد منـاف وبين بني مخزوم ، وفرق بين عبد شمس (كـذا ولعله وبني هاشم) • ومـن المعلـوم ان كتاب الحنين الى الاوطان طبعه عبدالسلام هارون ، اما كتاب فرق ما بين بني هاشم وعبد شمس فقد طبع السيد حسن السندوبي مختـارات طويلة منه • ولدى مقارنه مادة هذين الكتابين بمادة المخطوط فيمواضيعها المختصة نلاحظ ان الجاحظ يميل في المخطوطة الى التركيز والاقـلال من الشواهد ؛

غير انه يورد في المخطوطة ملاحظات وآراء جديدة يبدو انها من ثمار خبرات السنين •

ولا ريب ان المخطوط بشكله الحالي لا يطابق الكتاب الاصلي كله ، بل هو مقتطفات منه ، وقد ذكر الناسخ في اول معظم الفصول عبارة « فصل منه » مما يظهر اعترافه انه لم ينسخ الكتاب كاملا ، ولكنه اختار من فصوله قطعاً فنسخها •وقد كان الناسخ أميناً في النسخ ، اي انه حافظ على عبارات الجاحظ وكلماته ، يشهد بذلك الشبه الكبير بين ما نسخه وبين المقتطفات التي نقلتها الكتب الاخرى عن اصل الكتاب ، غير اننا لا نعرف مقدار ما تركه من اصل الكتاب ، فان القطع التي وضع في اولها كلمة « فصل » متباينة في الطول ، فبعضها لا يزيد على ثلاثة اسطر ، في حين ان البعض الآخر لا يقل عن سبع صفحات • والراجح في ما نرى ، ان هذا التباين راجع الى اختيار الناسخ وليس الى اضطراب التنسيق في اصل الكتاب •

وقد ادى عدم قيام الناسخ بنقل اصل الكتاب كاملا ، واقتصاره على نسخ مختارات من الفصول الى ان تظهر المخطوطة اضطراباً وتبايناً فياساليب البحث واتجاهاته ، والى غموض بعض الفصول وظهورها كالمبتورة او المقحمة •

ففي الفصول المخصصة لمكة تكلم بالتفصيل عن قريش وبني هاشم (اهل مكة) وتكلم باقتضاب عن البيت الحرام ، اي انه تكلم عن سكان مكة وبعض ما فيها ، اما عن المدينة فقد قصر كلامه على طيبها من دون الاشارة الى اهلها او آثار الاسلام فيها • وفي كلامه عن مصر عرض الى ذكرها في القرآن ، والى مدينة منف ، والى المشهور من سيداتها ، والى سعة وارداتها ، ولكنه لم يتطرق الى خصائصها الاخرى وما فيها • اما الكوفة فقد تحدث عن ماء الفرات وتعرض الى طراز بعض ابنيتها وخرابها ، وفي كلامه عن البصرة تحدث عن المياه والاسمدة والاسعار والملاحة وبعض الآثار ، ولكنه لم يتطرق الى السكان كما فعل في بحثه عن مكة ، اما كلامه عن الاهواز والمغرب فمقتضب الى حد الغموض • ولا ريب ان الجاحظ ، رغم ميله الى الاستطراد ، يتبع في كل كتاب من كتبه تنسيقاً وتسلسلا واضحين ، فليس يعقل ان يكون اصل الكتاب بمثل هذا الاختلال في تنسيق حجم الفصول ،والاضطراب فيالجوانب التي يتطرق الى بحثها فيكل مدينة ، ومما يلفت النظر ان المخطوطة لا تشير الى بغداد الا عرضاً ، ولا يعقل ان

يؤلف شخص كتاباً عن البلدان ويهمل بغداد عاصمة الدنيا في حينه • ثم انه يذكر في المقدمة ان الشخص الذي الف له الجاحظ الكتاب اراد ان يبدأ بالشام ،وان الجاحظ ارتأى ان يبدأ الكلام عن مكة والمدينة لمكانتهما الدينية في الاسلام ، ولم ينكر وجوب بحث الشام ، فلا يعقل ، والحالة هذه ان يخلو كتابه من بحث الشام • وكل هذا يدل على ان المخطوطة لا تمثل الا جزءاً من اصل الكتاب •

لقد نقل عدد من المؤلفين نصوصاً تطابق ما في مخطوطتنا ، وصرحوا في بعضها انها للجاحظ ، واغفلوا في البعض الآخر التصريح بمصدرهم ، غير ان مطابقة هذه النصوص لما موجود في مخطوطتنا تدل بشكل قاطع على انهم اخذوها من الجاحظ •

وابرز من نقل من كتاب البلدان هو ابن قتيبة في « عيون الاخبار » والثعالبي في « ثمار القلوب » و « لطائف المعارف » وابن الفقيه في « البلدان » وابن رسته في « الاعلاق النفيسة » وياقوت في « معجم البلدان » •

فاما ابن قتيبة فانه نقل في عيون الاخبار نصوصاً عن البصرة وبعض آثارها (٢١٩/١) دون ان يشير الى مصدرها ، ولكنها موجودة حرفياً في هذه المخطوطة مما يثبت اخذه منها •

اما الثعالبي فانه نقل نصوصاً في كتابه « ثمار القلوب » صرح بانها للجاحظ وهي مذكورة في مخطوطتنا وهي عن خصائص قريش (١١) (الخوارج ١٧٤) رأي عبدالملك بروح بن زنباع (١٥٩) واردات مصر (١٣١) وادي القصر بالبصرة (٥٢٨) الحزيز بالبصرة (٦٣٨) •

اما في لطائف المعارف ، فقد اورد الثعالبي ستة وعشرين نصاً صرح بانه نقلها عن الجاحظ ، منها واحد مطابق لما فيمخطوطتنا ، وهو المتعلق بالهاشميين (٨٦) غير انه اورد عدداً من النصوص لم يشر الى صاحبها الاصلي ، ولكنها تطابق ما جاء في مخطوطتنا مما يدلعلىانه اخذها عنها،وهيعنواردات مصر (١٦٠) وافساد الاهواز لبني هاشم (١٧٦) وعن خصال بني هاشم (٨٦) وطواعين دمشق (١٥٩) وماء البصرة (١٧٦) •

اما ابن الفقيه الهمداني فقد صرح بنقله عن الجاحظ في ثلاثة مواضع ، احداها عرضية (١٩٥) والثانية عن نخيل البصرة (٢٥٣) اما الثالثة فهي مذكورة في مخطوطتنا عن استحالة الطيب في الاهواز (١١٦) •

غير ان ابن الفقيه اورد في كتابه نصوصاً لم ينسبها ولكنها تطابق او تشابه ما في مخطوطتنا ، مثل كلامه عن محاسن الاستقرار (٤٩ ، ٢٣٨) وزواج قريش (١٨) ونساء القبط وخراسان وآل ابي طالب (٧٥) ونص ابي الخطاب عن مصر (٥٨) وكلام عبدالله بن عمرو بن العاص عن مصر (٥٧) وجباية مصر (٧٦) ووصف منف (٥٨)

وجدير بالملاحظة ان كلا من الثعالبي في « ثمار القلوب ٦ » وفي «لطائف المعارف » والهمداني وابن رسته نقلوا وصف المدينة عن كتاب الحيوان للجاحظ (٢٢٧/٣) وهو يشبه ما جاء في مخطوطتنا مع اختلاف في اللفظ •

وقد نقلت عدة كتب عن الجاحظ نصوصاً عن قريش او عن البلدان التي بحثها في مخطوطتنا ،دون الاشارة الى اي من كتب الجاحظ نقلت هذه النصوص • كما ان الجاحظ ذكر في بعض كتبه ، وخاصة كتاب الحيوان ، معلومات فيها تفاصيل عن احوال بعض المدن ،ولا يمكن الجزم بان ما ذكره في كتاب الحيوان عن المدن فريد ولم يتكرر في الكتب الأخرى وخاصة كتابه عن البلدان ،خاصة وان الجاحظ كثيرا ما يذكر النص الواحد في اكثر من كتاب بنفس الالفاظ او بالفاظ متغايرة قليلا ، بل انه قد يكرر النص الواحد اكثر من مرة في الكتاب الواحد ، كما ان الجاحظ الف كتاب الحيوان بعد تأليفه البلدان ، فليس من المستبعد ان يكرر فيه بعض ما ذكره في البلدان

وفي مخطوطتنا نصوص مبتورة ناقصة ، وقد وردت في بعض كتب الجاحظ الاخرى ، او في بعض كتب مؤلفين آخرين ، بشكل اكمل • ومع اننا لا نستطيع الجزم بان المعلومات التي وردت في كتب الجاحظ او المؤلفين الآخرين هي في الاصل مما احتواه اصل كتاب مخطوطتنا ، الا اننا نرجح ان كثيرا منها منقول عن هذا الكتاب

لقد بينا ان ناسخ المخطوطة باشارته الى فصول اصل الكتاب حافظ على هيكله العام ، ولكنه حذف من كل فصل معلومات تختلف في طولها • ويساعدنا عمل الناسخ هذا على معرفة الهيكل العام للاصل • ومما يساعدنا على تكوين فكرة قريبة من الصحة عن اصل الكتاب هو دراسة كتاب البلدان للهمداني الذي قال عنه المقدسي « ورأيت كتاباً صنفه ابن الفقيه الهمداني في خمس مجلدات سلك طريقة اخرى ، ولم يذكر غير المدائن العظمى ، وادخل فيه فنونا من العلوم ، مرة يزهد في الدنيا ، ودفعة يرغب فيها ، ووقتاً يبكي ، وساعة يضحك ويلهي • واما كتاب الامصار للجاحظ (في النص المحافظ)

فصغير ، وكتاب ابن الفقيه في معناه ، غير انه اكثر حشواً وحكايات ؛ واحتجا بأننا انما ادخلنا خلال كتبنا ما ادخلنا ليتفرج فيها الناظر اذا مل ، وربما كنت انظر في كتاب ابن الفقيه فأقع في حكايات وفنون انشأ اين كنت من البلدان ، ولم استحسن من هذا (احسن التقاسيم ص ٥ في الهامش) • ويذكر المقدسي ايضاً « واما ابن الفقيه الهمداني فانه سلك طريقة اخرى ، ولم يذكر الا المدائن العظمى ، ولم يرتب الكور والاجناد ، وادخل في كتابه ما لا يليق من العلوم ، مرة يزهد في الدنيا وتارة يرغب فيها ، ودفعة يبكي وحيناً يضحك ويلهي • واما الجاحظ وابن خرداذبه فان كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما كثير فائدة » (ص ٤) ، ويقول ايضاً « واذا نظرت في كتاب ابن الفقيه فكأنما انت ناظر في كتاب الجاحظ والزيج الاعظم » (ص ٢٤١)

ويتبين من هذا الكلام ان ابن الفقيه اعتمد كتاب الجاحظ في الامصار وتابعه ، وانه بحث المدائن العظمى فقط ، غير انه اضاف معلومات على ما في الجاحظ ، فكان كتاب الجاحظ صغيراً اذا قورن بكتاب ابن الفقيه • غير ان ابن الفقيه تابع الجاحظ في افكاره ونطاق بحثه • والواقع ان كثرة النصوص الواردة في كتاب ابن الفقيه والتي تشبه ما في مخطوطتنا تنهض دليلا على صدق ملاحظة المقدسي ، وتعطينا فكرة عامة عن هيكل كتاب الجاحظ •

لقد بينا ان ناسخ المخطوط حذف كثيراً مما في اصل الكتاب ، وان ابن الفقيه اضاف كثيراً على ما في اصل الكتاب ، ومع اننا لا نستطيع ضبط اصل الكتاب ، الا انه بمقارنة ما نقلته المصادر عن الجاحظ في وصف البلدان او ما نقلته من نصوص طويلة تشمل ما ورد في كتاب البلدان ، يمكننا ان نكون فكرة تقريبية عن محتوى اصل الكتاب ,

١ ــ قال الثعالبي انه «لا مزيد على وصف الجاحظ لهم (قريش) ومدحه اياهم ، وتخصيصه بني هاشم منهم ، فانه رحمه الله القى جمة فصاحته واستنزف بحر بلاغته في فصل له » (ثمار القلوب ١٣) وقد نقل الثعالبي في كتابه هذا ، عن قريش صفحات تطابق معظمها ما في المخطوطة ؛ ولكن في هذه الصفحات نصوص كثيرة عن قريش غير موجودة في مخطوطتنا • ولما كانت المخطوطة هي عبارة عن مختارات من فصول البلدان ، فهي لم تنقل كل الكتاب ، فالراجح ان ما اورده الثعالبي مأخوذ كله من الجاحظ ، وان الصفحات التي لا يوجد ما يشابهها في مخطوطتنا ، هي مما حذفه الناسخ من اصل الكتاب •

ويلاحظ ان في ثمار القلوب وصفاً لبني هاشـم ، مأخوذ عن الجاحظ لم نجده في كتب الجاحظ المطبوعة الاخـرى ،، لـذلك نرجح انه نقلـه عن كتاب البلدان للجاحظ

ثم ان في كل من ثمار القلوب ولطائف المعارف فصلا عن خصائص المسجد الحرام لم يذكر الثعالبي مصدره ، ونحن نرجح انه مأخوذ من هذا الكتاب الذي اكتفت مخطوطته بالاشارة الى اهمية بيت الله •

وقد وردت في كتاب الثعالبي وفي كتاب الحيـوان نصوص عن هاشـم وعبدالمطلب نعتقد انها جزء من هذا الكتاب ، اذ لا يعقل ان يبحث الجاحظ عن بني هاشم ويقتصر فيه الكلام على ابي طالب والامام علي واولاده •

٢ ــ اشار الثعالبي الى ان اغلبية النصوص التي نقلهـا عن مصر في كتاب لطائف المعارف (١٦٠ ــ ١٦٢) مأخوذة من الجاحظ ، وهي عن مقدار جبايتها ، واتتاج الكتان فيها ، والقراطيس ، والحمير المريسية ، والثعابـين ، وقلة المطر ، والرياح المريسية ، والنيل ، ولم يرد من هذه النصوص في كتابنا الا ما يتعلق بمقدار الجباية

ونقل الثعالبي في ثمار القلوب عن الجاحظ عن مصر والقراطيس (٥٣٠) والثعابين (٤٢٥) والرياح المريسية (٦٥٦) والنيـل (٥٦٩) كما نقـل عن حمير مصر (٥٣١) وعن قلة امطارها (٦٥٥) نفس النصوص المنسوبة في لطائف المعارف الى الجـاحظ ، ولكنه لم يذكر في ثمـار القلوب انها من الجاحظ •

وقد اورد الهمداني كلاماً كثيراً عن خصائص مصر وذكر منها انتـاج الكتـان ، والحمير المريسية (٦٩) وقلة المطر (٧٤) دون ان يشـير الى مصدره ، ومن الواضح انه استقاها من الجاحظ • ولعل كثيراً من الخصائص الاخرى التي ذكرها مستقاة من الجاحظ ايضاً •

وقد ذكر المسعودي ان الجاحظ ذكر في كتاب الامصار ان نهر مهران السند هو من نيل مصر (مروج الذهب ١/٢٠٦) (التنبيه والإشراف ص٤٩) وانظر ايضاً ما قاله البيرونى في تحقيق ما للهند ص ١٦٣ طبعة حيدر آباد

٣ ــ جاء في معجم البلدان « قال الجاحظ : من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد لانهم يلبسون القميص مرة ، والمبطنات مرة ، والجباب مرة ، لاختلاف جواهر الساعات • ولذلك سميت الرعناء » (٢/٧٩٢)

وذكر ياقوت ايضاً « وقال الجاحظ : بالبصرة ثلاثة اعجوبات ليست

في غيرها من البلدان منها ان عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد ، فيقبل عند حاجتهم اليه ويرتد عند استغنائهم عنه ، ثم لا يبطيء عنها الا بقدر هضمها واستمراءها ، وجمامهـا واستراحتهـا ، لا يقتلها عطشاً ولا غرقاً ، ولا يغبها ظمأ ولا عطشاً ، يجيء على حساب معلوم ، وتدبير منظوم ، وحدود ثابتة ، وعادة قائمة ، يزيدها القمر في امتلائه ، كما يزيدها في نقصانه ، فلا يخفى على اهل الغلات ، يتخلفون ، ومتى يذهبون ويرجعون بعد ان يعرفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر ، فهي آية واعجوبة ، ومفخرة واحدوثة ، لا يخافون المحل ولا يخشون الحطمة :

والاعجوبة الثانية ادعاء اهل انطاكية واهل حمص وجميع بلاد الفراعنة الطلسمات ، وهي بدون مـا لاهل البصرة ،وذلك ان لو التمست في جميع بيادرها وربطها المعودة وغيرها على نخلها في جميع معاصر دبسها ان تصيب ذبابة واحدة لما وجدتها الا في الفرط • ولو ان معصرة دون الغيط او ثمرة منبوذة دون المسناة كما استبقها من كثرة الذبان •

والاعجوبة الثالثة ان الغربان القواطع في الخريف يجيء منها ما يسود جميع نخل البصرة واشجارها ، حتى لا يرى غصن واحد الا وقد تأطر بكثرة ما عليه منها ، ولا كربة غليظة الا وقد كادت ان تندق لكثرة ما ركبها منها ، ثم لم يوجد في جميع الدهر غراب واحد ساقط الا على نخلة مصرومة ، ولم يبق منها عذق واحد ، ومناقير الغربان معاول ، وتمر الاعذاق في ذلك الابان غير متماسك ، فلو خلاها الله تعالى ولم يمسكها بلطفه لاكتفى كل عذق منها بنقرة واحدة حتى لم يبق عليها الا اليسير ، ثم هي في ذلك تنتظر ان تصرم ، فاذا اتى الصرام على آخرها عذقاً رأيتها سوداء ، ثم تخللت اصول الكرب فلا تدع حشفة الا استخرجتها • فسبحان من قدر لهم ذلك ، واراهم هذه الاعجوبة » (١/٦٥١ ــ ٢)

لقد ذكر الجاحظ في كتـاب الحيوان اعجوبة الذبـاب (٣/٤٠٤) واعجوبة الغربان (٣/٤٥٣) ولكن باسلوب يختلف تماماً عما جاء في ياقوت ، وبالنظر لدقة ياقوت في النقل وايراده الاعـاجيب الثلاثة متصلة ، وبالنظر لما نعرفه عن الجاحظ من تكرير المعلومات باساليب متغـايرة ، فالراجح ان ياقوت قد نقل هذه الاعاجيب الثلاثة من كتاب آخر للجاحظ ، ولمـا كان ما نقله يتصل بخصائص البصرة ، وهي لا توجد فيما بين يدينـا من كتبه ، فالراجح انه نقلها من كتاب البلدان •

٤ ـ لم يرد في المخطوطة عن الشام الا نص واحد جاء في آخر الكلام عن المدينة ، وهو يتصل بالشام وبالحجاز ؛ وان عدم بحث الشام يبدو غريباً ، لان الجاحظ ذكر في مقدمة المخطوطة ان الشخص الذي الف له الجاحظ الكتاب اراده ان يبدأ بالشام ومصر غير ان الجاحظ فضل لاسباب ذكرها ، ان يبدأ الكلام عن مكة والمدينة ، فاذا قدم الجاحظ ذكر هذين البلدين ، فلا يعقل ان لا يتناول بحث الشام ، وهي المطلب الاول لمن الف له الكتاب •

ويلاحظ ان ياقوت نقل في معجمه نصاً صرح انه مأخوذ من كتاب البلدان للجاحظ (٢/٥٩٣) ؛ وهذا دليل على ان الجاحظ تناول في الكتاب الاصلي بحث الشام •

وقد عقد الثعالبي في لطائف المعارف فصلا عن الشام ، وضعه بعد مكة والمدينة وقبل مصر ، وهو ترتيب يناسب ما اشار اليه الجاحظ في مقدمة كتابه من انه سيقدم بحث مكة والمدينة على الشام ومصر •

لم يشر الثعالبي الى المصدر الذي استقى منه المعلومات في هذا الفصل الذي كتبه عن بلاد الشام ؛ ولكنه ذكر في آخره النص المتعلق بروح بن زنباع والموجود في مخطوطتنا • وقد اعاد الثعالبي في « ثمار القلوب » كثيراً مما اورده في لطائف المعارف عن خصائص الشام ، فتكلم عن جبل اللكام موضع الابدال (٢٣٢) وتفاح الشام (٥٣٠) وزيتها (٥٣١) وطاعة اهل الشام (٥٤٦) كما انه أورد عن مسجد دمشق نصاً ذكر انه أخذه من الجاحظ (٥٢٥) وهذا قد يدل على ان بقية المعلومات مأخوذة من الجاحظ ايضاً •

ومن الجدير بالملاحظة ان ابن الفقيه اورد فصلا طويلا عن خصائص الشام ، وذكر فيه تفاح الشام ، وزيتها ،وكنيسة الرها (١١٧) وكلها مذكورة في لطائف المعارف • وبالنظر لما نعرفه من اعتماد كل من ابن الفقيه والثعالبي على الجاحظ ، وايراد كل منهما هذه الخصائص ، فالراجح انهما اخذاها من الجاحظ ؛ وانها جزء من كتابه في البلدان •

٥ ـ ورد في المخطوطة فصل مقتضب ذكر فيه اثر الاهواز في تبديل طبائع الهاشميين • وقد ورد ذكر هذا الاثر ضمن نص اطول يحتوي ، بالاضافة الى ذلك ، اثر حمى الاهواز في المواليد ، وجرارات الاهواز ، ومياهها (لطائف المعارف ١٧٥ ـ ١٧٧ ثمار القلوب ٥٥٠ عن الجاحظ) ؛ ان نص الثعالبي على ان هذه المعلومات مأخوذة من الجاحظ وورود ما يتعلق

بتبدل طبائع الهاشسيين في هذا النص وفي المخطوط هو دليل على ان ما جاء في المخطوط ما هو الا مقتطف من النص الاصلي الاطول الذي اورده الثعالبي، وهو ساقط من نسختنا

وقـد ذكر ما يتعلق بتبديل الاهواز طبائع الاشـراف كل من ابن قتيبة (١/١٩٩) وياقوت (١/٤١٢)

ومن الطبيعي ان هذا النص هو غير الفصل المنقول عن الجاحظ الـذي ذكرت فيه الاهواز مع بلدان اخرى والذي سنتحدث عنه فيما بعد •

٦ ــ يذكر الخطيب عن الجاحظ « قال : قد رأيت المدن العظام ، والمذكورة بالاتقان والاحكـام بالشام وبـلاد الروم وفي غيرهـا من البلدان ، فلم ار مدينة قط ارفع سمكا ولا اجود استدارة ولا انبل نبلا ولا اوسع ابوابا ولا أجود فصيلا الزوراء ، وهي مدينة ابي جعفر المنصـور ، كأنما صبت في قالب ، وكأنما افرغت افراغا » (تاريخ بغداد ١/٧٧ وقد ورد في ابن الفقيه ١٨ أ مخطوطة مشهد) •

لم نجد هذا النص في كتب الجـاحظ التي بين ايدينا ، وان اسـلوبه ومعانيه تنسجم مع ما يذكره عن البلدان في مخطوطتنا • وليس من المعقول ان يكتب الجاحظ عن البلدان ، وخاصة المدن الكبار ، ويغفل بغداد ؛ فالراجح فيما نرى انه خص بغداد بفصل منه الفقرة المذكورة اعلاه ، ولكن الناسخ لم يورده لسبب ما ؛ وقد رأينا في المخطوطة نصوصا عن نزيز بغداد ، وغلاء اسعارها ،والاوساخ فيها ؛ ولعل هذه الامور هي جزء مما كتبه عن بغـداد ولكن الناسخ لم يشر اليها • ومن المؤسف ان الفصـل الطويل عن بغداد الموجود في مخطوطه مشهد من كتاب ابن الفقيه ، لا يرد فيه عن الجـاحظ الا النص المذكور اعلاه • وكذلك كتاب تاريخ بغداد للخطيب •

ولعل من الفصل الذي خصصه لبغداد الوصف الذي نقله الثعالبي عنه لاقليم بابل حيث قال عنه « اقليم بابل موضع التميمة ، وواسـطة القلادة ، ومكان السرة من الجسد واللبة من المرأة ، ومكان العذار من خط الفرس ، والمحة من البيضة ، والغرة من القرطاس » (ثمار القلوب ٥١٦)

ويتبين مما ذكرناه اعلاه ان في الكتب مقتطفات عن الجاحظ تنسجم مع ما جاء في مخطوطة كتاب الاوطان والبلدان ، من حيث الاسلوب والاتجـاه والمادة ، والراجح انها جزء من الكتاب ، وانه بوضـعها مع هذا المخطوط تقدم صورة اكمل عنه •

لقد بينا فيما سبق ان المخطوطة هي مقتطفات من الكتاب متباينة في حجمها ، وحاولنا بالادلة النقلية او العقلية ان نعين النصوص التي وردت في الكتب الاخرى وهي مأخوذة من كتاب الجاحظ ، غير اننا قصرنا كلامنا على النصوص المتعلقة بالمدن والبلدان التي بحثت في المخطوطة • ولا بد لنا ان نذكر ان في الكتب نصوصاً عن مدن اخرى كثيرة يذكر مؤلفوها انهم اقتبسوها من الجاحظ ، فالثعالبي في كتابه لطائف المعارف الذي رأينا مدى اعتماده على كتاب البلدان للجاحظ يذكر خصائص مدن كثيرة ، وابن الفقيه الذي يذكر المقدسي انه اعتمد كتاب الجاحظ أساساً ، يضم فصلا عن خصائص البلدان وتدل اشارة المقدسي الى انه نقله ، او اعتمد فيه ، على الجاحظ • كما ان ابن قتيبة اشار الى خصائص عدد من المدن والبلدان غير ما ذكرنا ، ووضعها ضمن النصوص التي يبدو من المقارنة انه نقلها عن الجاحظ

ازاء هذا لا بد ان نسأل هل قصر الجاحظ بحثه في كتاب البلدان على مكة والمدينة والشام ومصر والاهواز والكوفة والبصرة ، مع المغرب وبغداد ، أم انه بحث ايضاً عدداً من المدن الاخرى بحثاً مفصلا او اجمالياً ؟ فاذا كان بحثه مقصوراً على المدن الكبرى كما يقول المقدسي ، اي التي عددناها اعلاه ، فهل الف كتاباً آخر في المدن ؟ ولا بد قبل البحث في هذا الامر ان نشير الى ان كتاب الحيوان للجاحظ فيه اشارات متفرقة الى خصائص بعض المدن ، ولكنها غير مستوعبة ، كما انها لم تكتب بالاسلوب الذي كتب فيه وصف هذه المدن في المصادر التي اشرنا اليها اعلاه • ومن المعلوم ان الجاحظ يكرر المعلومات في كتبه ، فاذا لم يكن المؤلفون قد اخذوا هذه المعلومات من كتاب الحيوان،بدليل اختلاف حرفية النصوص ،فهل اخذوها من كتاب البلدان ام من كتاب آخر للجاحظ • او بعبارة اخرى هل قصر الجاحظ بحثه عن البلدان على اصل مخطوطتنا ام ان له كتاباً آخر في الموضوع

ومن المعلوم ان العرب لم يحرصوا كثيراً على تدقيق وضبط عناوين الكتب ، بل ان الجاحظ نفسه في مخطوطتنا الحالية اشار الى عدد من كتبه ومحتواها من دون ان يضبط اسم احدها • ولكن يمكن القول اجمالا ان العناوين التي وصلتنا عن الكتب المتوقع ان يكون للجاحظ فيها بحوث اقتصادية او مدنية ، هي كتاب التبصر بالتجارة ، وكتاب الامصار وكتاب البلدان ، وكتاب خصائص البلدان •

اما كتاب التبصر بالتجارة فقد ذكره الثعالبي واقتطف منه نصاً في

لطائف المعارف (٢٢٢) وفي ثمار القلوب (٥٤٤) ثم نشره الاستاذ حسن حسني عبدالوهاب •ويتبين من مطالعة الكتاب ان الجاحظ بحث فيه اصناف الجواهر والعطور ، والمنسوجات والعقاقير ، وكذلك ما يجلب من البلدان من طرائف السلع واخيراً بحث عن انواع جوارح الطير • وكل ذلك مكتـوب باسلوب مركز خال من الشواهد والاستطراد او التعابير البلاغية ، الامر الذي اثار عند البعض الشك في نسبته الى الجاحظ ؛ ومهما يكن فان نطاق بحثه هو السلع وليس البلدان

اما الكتاب الثاني فقد سماه الامصار كل من الثعالبي حيث نقل منه نصاً عن الدور الثلاثة المغلة في العراق (ثمار القلوب ٥١٩) والمقدسى الذي ذكر بانه كتاب مقتضب اعتمد عليه ابن الفقيه (٥) ؛ وقد رأينا فيما سبق ان ابن الفقيه نقل عن كتاب البلدان للجاحظ كثيراً • غير ان المقدسي نفسه يعترف بان ابن الفقيه اضاف كثيراً على ما اخذه من الجـاحظ • ويجدر ان نلاحظ ان ابن الفقيه عقد فصـلا عنوانه ذكر ما خص الله تعالى كل بلدة بشيء من الامتعة دون غيرها ، وذكر فيه الجاحظ عند الكلام عن تمور البصرة (٢٥١ـ ٢٥٥) • وكلا النصين غير موجودين في مخطوطتنا ، فهل انها منقولة من اصل الكتاب ام من كتاب مستقل للجاحظ اسمه الامصار ؟

وقد ذكر المسعودي للجاحظ كتاب الامصار وعجائب البلدان ونقل عنه نصاً حول اتصال نهر مهران السند بالنيل في منبعه (مروج ١/٢٠٦التنبيه والاشراف ٤٩) وهو نص لا نجده في مخطوطتنا ، وقد يكون مما بحثه عن نيل مصر ولكنه محذوف من مخطوطتنا •

ويذكر الثعالبي للجاحظ كتاب خصائص البلدان ويقتطف منه صفحة (ثمار القلوب ٥٥١) وهو يذكر في آخر كتاب (ثمار القلوب) « وبسـط الكلام في كل منها وخصائص البلدان وتفصيل معادنها وتركيب اماكنهـا وتلخيص احوالها مكان من كتاب خصائص البلدان المستفتح به ايضا باسم الامير السيد ادام الله تأييده ، فاما هذا الكتاب فلا يتسع لاكثر مما اوردته وهو يسير من كثير وغيض من فيض »

ولا ريب ان كلام الثعالبي غامض ، فقد يفهم منه ان كتاب خصـائص البلدان مما الفه للامير السيد ابي الفضل الميكالي ؛ او انه يشير الى الفصل الذي خصصه للبلدان في كتاب ثمار القلوب ، فاما الفرض الاول فينقضـه عدم ذكر المصادر كتابا للثعالبي بهذا الاسم ، واما الفرض الثاني فيضعه ان

الفصل الذي عقده في ثمار القلوب غير شامل ولا واف .

ومما يضعف الافتراض بان كتاب خصائص البلدان للثعالبي ، هو ان هذا العالم المعجب بالجاحظ لم يعرف عنه انه قلد الجاحظ او تابعه في تسمية كتبه ، فليس من السهل ازاء هذا ان نقول ان للثعالبي كتاباً اسمه خصائص البلدان ، في حين ان الثعالبي نفسه يذكر خصائص البلدان للجاحظ ويقتطف منه ما يلي :

« قال الجاحظ في خصائص البلدان عن ثقاة التجار الذي نقبوا في البلاد :

من اقام في البحرين مدة ربا طحاله ، وانتفخ بطنه ؛ قال الشاعر

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله ويغبط بما في بطنه وهو جائع

ومن أقام بقصبة تبت اعتراه سرور لا يدري ما سببه ، ولا يزال مبتسماً ضاحكاً حتى يخرج منها .

ومن مشى واختلف في طرقات المدينة وجد فيها عرفاً طيباً ورائحة عجيبة. وشيراز من بين جميع فارس لها نعمة طيبة ، واجمع اهل البحرين ان لهم تمراً يسمى النابجي ، وان من فضخه وجعله نبيذاً ثم شربه وعليه ثوب ابيض صبغت عرقه ، حتى كان عليه ثوب لاذ .

ومن اطال الصوم بالمصيصة في ايام الصيف هاجت به المرة ، وان كثيراً منهم قد جنوا من ذلك الاحتراق

ومن اقام بالموصل حولا ثم تفقد عقله وجد فيه فضلا

ولا بد لكل من قدم من شق العراق الى بلاد الزنج انه لا يزال جرباً ما اقام به فان اكثر من شرب النارجيل طمس الخمار على عقله حتى لا يكون بينه وبين المعتوه الا الشيء اليسير » (ثمار القلوب ٥٥١ — ٢)

وقد نقل الثعالبي في لطائف المعارف منسوباً الى الجاحظ من هذا النص ما يتعلق بالبحرين والمصيصة وبغداد (ص ٢٣٠ — ٣١) وبشيراز (١٨٠) وبالموصل (١٨٣) ؛ ونقل ما يتعلق بالتبت في ثمار القلوب (٣٨٨) هذا الكلام عن الجاحظ مع تلخيص قليل وممتزج بما ذكره الجاحظ عن الاهواز عند ابن قتيبة (عيون الاخبار ١/٢١٩) وعند ابن خرداذبه ضمن فصل من عجائب طبائع البلدان ص ١٧٠ — ١ وعند ابن رسته ضمن فصل بعنوان ومن عجيب طبائع البلدان ٨٢ — ٨٣

كما ذكر السطر المتعلق بالموصل ابن الفقيه (١١٨)

وقد اورد الجاحظ في كتاب الحيوان (٤/١٣٥–١٤٣) هذه النصوص ضمن كلام طويل عن اثر طبائع البلدان والاغذية في طبائع الحيوان ، فذكر ما يتعلق بالتبت ، والموصل ، والاهواز ، وعن دماميل الجزيرة وطواعين الشام ، وتضخم طحال اهل البحرين ، وتبدل احوال المسافرين من العراق الى بلاد الزنج ، واثر صوم اهل المصيصة ، ثم احوال الاهواز (وقد اشرنا اليها في هامشنا على نص المخطوط) وقد اورد في كلامه استطرادات واشعار غير قليلة ؛ وان اتفاق المصادر على حرفية النص الذي اوردناه اعلاه دليل على انهم اخذوه من مصدر واحد يخالف ما في كتاب الحيوان ؛ وان ما جاء في كتاب الحيوان هو اعادة موسعة للفصل الاصلي

وقد اعاد في مكان آخر من كتاب الحيوان (٧/٢٢٩) الكلام عن رائحة الطيب في المدينة وسرور من يدخل التبت ، ورائحة شيراز ، واثر المدينة والاهواز في العطور ، وصبغ التسر النابجي في البحرين ، غير ان صيغة النص وبعض الكلمات تختلف عما جاء في ٣/١٤٠

ونقل عنه الثعالبي « كان السبب الذي اشاع في اهل خراسان اللواط وعودهم ذلك كثرة خروجهم في البعوث ، وكانوا لا يستطيعون اخراج النساء والجواري معهم ؛ ولم يكن لهم بد من غلمان تهيء مؤنهم ، فلما طال مكث الغلام مع صاحبه بالليل والنهار ، وفي حال التبذل والتكشف ، وفي حال اللباس والستر وكانت الغلمة تهيج بهم ، شغفوا بغلمانهم ، وهم فحول والرجل يهيج فيواقع البهيمة ويخضخض بيديه ، ومن كان كذلك لم يميز بين غشيان البهائم والتدليك ، وبين غنج الغلمان الحسان ، فتعودوا ذلك في اسفارهم ، ورجعوا الى منازلهم ؛ وقد تمكنت تلك الشهوة منهم مع الذي فيه عند انفسهم من خفة المؤونة والامن من السلطان ومن الحيل وغير ذلك من المرافق . ولو كانت هذه الشهوة شائعة في الاعراب لتعشقوا الغلمان ، ولو تعشقوا لنسبوا بهم ولجاءهم فيه اشعار واخبار . والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني ، وان كان هناك شيء من هذا فليس هو الا في بعض من ينزل قارعة الطريق ، او بقرب الاسواق ، وهؤلاء ليس فيهم من خصال الاعرابية الا الجوهرية ، فاما الاخلاق والفصاحة والانفة والفروسية ، فهم على خلاف ذلك كله . وقد ذكر الناس ان بالهند شيئاً من هذه الفاحشة ليس بالفاشي ، وذكر بعض اهل البلدان وبعض قبائل الجاهلية وبعض ملوك اليمن بهذا الشأن،ولكن لم نجد الاشعار بذلك متسعة والاخبار

متفقة » (ثمار القلوب ٥٥٣) ان هذا النص لم يرد ذكره في ما طبع من كتب الجاحظ ، فهو مأخوذ اما من نسخة اكمل من كتاب « الجواري والغلمان » او من كتاب البلدان ، نظراً لانه يتكلم في هذا النص عن هذين الموضوعين ؛ ومن المحتمل انه يتعلق بالبلدان .

ونقل الثعالبي عن الجاحظ نصاً يتعلق بسجستان وافاعيها « واكثر ما يجلب اهل صنعة الترياق والحواءون الافاعي من سجستان ، وذلك كسب لهم وحرفة ومتجر ، ولولا كثرة قنافذها لما كان لهم بها قرار ولا اقامة ، والقنفذ لا يبالي اي موضع قبض من الافعى ، وذلك انه لما قبض على رأسها او قفاها فهي مأكولة على اسهل الوجوه ، وان قبض على وسطها او على ذنبها جذب ما قبض عليه فاستدار وتجمع ومنحه سائر بدنه ، فمتى فتحت فاها لتقبض على شيء منه لم تصل الى جلده مع شوكه النابت فيه ، والافعى تهرب منه ، وطلبه لها وجرأته عليها على قدر هربها منه وضعفها عنه » (ثمار القلوب ٤٢٥) وهذا النص منقول من كتاب الحيوان (٤/١٦٨-٩) ومن الطبيعي اننا لا نستطيع الجزم بانه تكرار لما جاء في كتاب البلدان ، ولكنه محتمل جداً .

ونقل الثعالبي عن الجاحظ ايضاً :

« قد علم الناس ان القطن بخراسان ، والكتان بمصر ، ثم للناس منذ ذلك في تفاريق البلدان ما لا يبلغ بعض بلاد هذين الموضوعين ، وربما بلغت قيمة الحمل من دق مصر الذي هو من الكتان لا غير مائة الف الف دينار (كذا) » (ثمار القلوب ٥٣٠-٥٣١)

وقوله في البلدان « الامصار عشرة : المروءة ببغداد ، والفصاحة بالكوفة ، والصنعة بالبصرة ، والتجارة بمصر ، والغدر بالري ، والجفاء بنيسابور ، والبخل بمرو ، والصلف ببلخ ، والحرفة بسمرقند » (المقدسي ٣٣ الخطيب ١/٤٩ نهاية الارب ١/٣٧١) وذكر النويري انه من كتاب الامصار للجاحظ

وقد نقل الثعالبي عن الجاحظ قوله « من خصائص اليمن السيوف والبرود والقرود والزرافة وهي التي يقال لها بالفارسية اشتر كاوبلنك اي فيها شبه من الجمل والثور والنمر » (لطائف المعارف ١٦٠ انظر ايضاً نهاية الارب ١/٣٤٠

يتبين مما تقدم ان الجاحظ وان كان قد فصل الكلام في البلدان السبعة

التي بحثها في كتاب البلدان ، الا انه تناول بجانب ذلك عدداً كبيراً من المدن وذكر خصائصها ، غير ان ما نقل عنه في ذلك يدل على ان كلامه كان مقتضباً ، وانه اقرب الى ان يكون فصلا من كتاب ، منه الى كتاب مستقل ؛ وهذا لا يناقض ما نقله الثعالبي(قال الجاحظ في خصائص البلدان) فان الثعالبي لم ينص على ما قصده في خصائص البلدان ، فيجوز ان يكون المقصود» فصل خصائص البلدان ؛ ومما يؤيد ذلك ان ابن الفقيه وابن رسته اللذين تابعا فيما يظهر الجاحظ جعل كل منهما كتابه يفصل في الكلام عن مدن معينة ، ثم الحق ذلك بفصل مجمل عنوانه عجائب البلدان ، وجمع فيه خصائص عدد كبير من المدن . ونحن نرجح ان فصل خصائص البلدان كان ملحقاً بكتاب البلدان والاوطان لاتصاله به ولان الذين نقلوا عن كتاب البلدان نقلوا هذه الخصائص ايضاً .

وجدير بالملاحظة ان الثعالبي في لطائف المعارف ذكر في كلامه عن المدن خصائص كل من الحرم ، والشام ، ومصر ، والاهواز ، وفارس ، والموصل ، والري ، وطبرستان ، وجرجان ، ونيسابور ، وطوس ، وهراة ، ومرو ، وبلخ ، وبست ، وغزنه ، وسجستان ، والهند ، والروم ، وسمرقند ، والصين ، وبلاد الترك ، وخوارزم ، وقد اغفل عند ذكر خصائص هذه البلاد المصدر الذي استقاه منه ، ولم يشر فيه الى الجاحظ ، بل انه وضع نصوصاً اشار الى انه اخذها من الجاحظ بجانب النصوص المتعلقة ببعض المدن . وهذا يجعلنا نعتقد انه لم يأخذها من الجاحظ رغم ان اسلوب مادتها يشبه اسلوب كتاب التبصر بالتجارة ، من حيث التركيز والاقتصار على المنتوجات . ولكن حتى لو جوزنا نسبة هذه المادة الى الجاحظ فانها لن تكون من السعة بحيث تصبح ككتاباً قائماً بذاته . لذلك يمكن القول ان كتاب الامصار وعجائب البلدان ، هو نفس كتاب الاوطان والبلدان الذي كان يضم فصلا في خصائص البلدان .

اسلوب النشر

لما كانت المخطوطتان متطابقتين في ترتيبهما ومادتهما ، ولما كان تحت تصرفي الصورة الفوتوغرافية لنسخة لندن ، فقد اعتمدتها اساساً للنشر ، واشرت الى الاختلاف الواقع بينها وبين نسخة القاهرة ، علماً باني لست واثقاً فيما اذا كان الاختلاف راجعاً الىالاصل ام الى من نسخ لي نسخة القاهرة .

ولما كنت معتمداً على نسخة واحدة ، فقد قارنت ما فيها بما نقلته الكتب

الاخرى عنهـا ، وثبت الاختلافات بينهمـا ، وحاولت اصلاح ما رأيت ان الناسخ قد اخطأ فيه ، مع الاشارة في الهامش الى الشـكل الاصلي الذي ذكره الناسخ • اما الكلمات او الجمل التي لم استطع تقويمها ، فقد ابقيتها على شكلها ووضعت بجنبها علامة استفهام (؟)

ولما كان المخطوط هو مختارات من الكتاب الاصـلي ، فقد وضعت في الهوامش النصوص التي وردت في الكتب الاخرى والتي اعتقد انهـا مقتبسة من الكتاب الاصلي ؛ ولم اضعها في النص لان اعتقادي لا يصـل الى حد الجزم القاطع •

وقد لاحظت ان الفصـل الذي تكلم فيه الجاحظ عن البيت الحرام موضوع في المخطوطة قبل الفصل الذي يتكلم فيه عن بني هاشـم ، وان كلامه عن خصال قريش مشطور شطرين ، اولهما في بدء الكلام عن اهـل مكة ، والثاني بعد الكلام عن بني هاشم ، واعتقاداً مني ان التسلسل المنطقي يقتضي ان يكون قد تكلم عن خصائل قريش ، ثم عن بني هاشم ، ثم عن البيت الحرام ؛ لذلك وضعت المتأخر من الكلام عن قريش مع المتقدم منه ، ونقلت مكان الفصل الذي عن البيت الحرام الى ما بعد الفصل الذي تكلم فيه عن بني هاشم ،اما فيما عدا هذا فلم ابدل شيئاً من ترتيب الفصول ، اعتقاداً مني ان ترتيبها في المخطوطة هو كترتيبها في الكتاب الاصلي •

واني في الوقت الذي اشكر الاخوان الذين عاونوني في اعداد البحث بنقل بعض النصوص وتقديم المقترحات وادخال التعديلات ؛ اراني مسؤولا عما فيه من زلل أو اخطاء • واني مع علمي بان كثيراً مما ورد فيه معروف من الكتب الاخرى ، الا انني ارى ان الصفحات الاخيرة التي لم اجد من اشار الى مادتها تلقي ضوءاً على التاريخ الجغرافي والاقتصادي والعمراني للبصرة والكوفة وبغداد خاصة ، وان نشره يسـاعد على تفهم مصـادر كثير من المؤلفات • وارجو ان اكون بذلك قد وفيت بعض ما انا مدين به للجاحظ فـاما الزبد فيذهب جفـاءاً واما مـا ينفـع النـاس فيمكث في الارض » صدق الله العظيم •

صالح احمد العلي

منتخبات من رسائل عمرو بن بحر الجاحظ

فصل من صدر كتابه في الاوطان والبلدان

زينك[١٤٧] الله بالتقوى وكفاك المهم من امر الآخرة والاولى ، وابلج[١٤٨] صدرك باليقين ، واعزك بالقناعة ، وختم لك بالسعادة ، وجعلك من الشاكرين •

سألت ابقاك الله ان اكتب لك كتاباً في تفاضل البلدان وكيف قناعة النفس[١٤٩] بالاوطان ، وما في لزومها من الفشل والنقص[١٥٠] ، وما في الطلب من علم التجارب والعقل[١٥١] •وذكرت ان طول المقام من اسباب الفقر كما ان الحركة من اسباب اليسر • وذكرت قول القائل « الناس بأزمانهم اشبه منهم بآبائهم » ، ونسيت ابقاك الله عمل البلدان وتصرف الازمان وآثارهما في الصور والاخلاق ، وفي الشمائل والاداب ، وفي اللغات والشهوات ، وفي[١٥٢] الهسم والهيئات ، وفي المكاسب والصناعات على ما دبر الله تعالى من ذلك بالحكم[١٥٣] اللطيفة[١٥٤] والتدابير العجيبة ؛ فسبحان من جعل بعض الاختلاف سبباً للائتلاف ، وجعل الشك داعية الى اليقين ، وسبحان من عرفنا ما في الحيرة[١٥٥] من الذلة ، وما في الشك من الوحشة ، وما في اليقين من العز ، وما في الاخلاص من الانس •

وقلت إبدأ لي[١٥٦] بالشام ومصر ، وفضل ما بينهما ، وتحصيل جمالهما ، وذكرت ان ذلك سيجر العراق والحجاز ، والنجود[١٥٧] والاغوار ، وذكر القرى والامصار والبراري والبحار

---

(١٤٧) لم يذكر الجاحظ في الرسالة اسم من وجهت اليه ، ولم اجد من محتواها ما يدل على ذلك ما عدا انه اراد البدء بالشام وسنرمز الى نسخة المتحف البريطاني (ل) ونسخة دار الكتب (ق)

(١٤٨) ل « واثلج »

(١٤٩) ق « الناس »

(١٥٠) ل « النفس »

(١٥١) نقل ابن الفقيه هذه الجملة في كتاب البلدان ص ٤٩

(١٥٢) ل يحذف

(١٥٣) ل بالحكمة

(١٥٤) ق وفي

(١٥٥) ق الخبرة

(١٥٦) ق ابدئي

(١٥٧) ل النحجود

واعلم ابقاك الله انا متى قدمنا ذكر المؤخر واخرنا ذكر المقدم ، فسد النظام وذهبت المراتب ؛ ولست ارى ان اقدم شيئا من ذكر القرى على ذكر ام جميع القرى ، واولى الامور بنا ذكر خصال مكة ثم خصال المدينة .
ولو لا يجب من تقديم ما قدم الله وتأخير ما اخر ، لكان الغالب على النفوس ذكر الاوطان وموقعها من قلب الانسان ، « وقد قال الاول عمر الله البلدان بحب الاوطان ؛ وقال ابن الزبير ليس الناس بشيء من اقسامهم اقنع منهم بأوطانهم[158] لو لا ما من الله به على كل جيل منهم من الترغيب[159] في كل ما[160] تحت ايديهم وتزيين كل ما اشتملت عليه قدرتهم،وكان ذلك مفوضاً الى العقول والى اختيارات النفوس ، ما سكن أهل الغياض والادغال في الغمق واللثق ولما سكنوا مع البعوض والهمج[161] ولما سكن سكان الفلاح[162] في قلل الجبال . ولما أقام اصحاب البراري مع الذئاب والافاعي وحيث من عز بز ، ولا اقام اهل الاطراف في المخاوف والتغرير[163] ، ولما رضى اهل الغيران وبطون الاودية بتلك المساكن ، ولالتمس[164] الجميع السكن في الواسطة ، وفي بيضة العرب ، وفي دار الأمن والمنعة .

وكذلك كانت تكون احوالهم في اختيار المكاسب والصناعات وفي اختيار الاسماء والشهوات ، ولاختاروا[165] الخطير على الحقير والكبير على الصغير ؛

---

(١٥٨) قارن الحنين الى الأوطان ٣٨٧/٢ مناقب الاتراك ٦٤/١ من مجموع رسائل الجاحظ طبع عبدالسلام هارون . وقد نقل الجاحظ هذان النصان في كتاب حجج النبوة (ص ١٢٦ فما بعد من رسائل الجاحظ مثل الآراء التي عرضها في هذه الرسالة . وانظر ايضا البلدان ٢٣٨

(١٥٩) ق الترتيب

(١٦٠) ق . ل كلما

(١٦١) الغمق الندى والرطوبة والوخامة . واللثق الندي مع سكون الريح . وقد اورد الجاحظ هذا التعبير في وصفه العرب . في رسالة مناقب الاتراك (رسائل الجاحظ ٧٠/١ طبعه عبدالسلام هارون)
الهمج الاخلاط والذي لا نظام لهم ، والهامج يموج بعضه في بعض. وقد وردت هذه الكلمة في قصيدة للحارث بن حلزة نقلها الجاحظ في البيان والتبيين ٣٠٣/٣
يترك ما رقح من عيشه يعيث فيه همج هامج

(١٦٢) كذا في النسختين

(١٦٣) ل التغرير

(١٦٤) في النسختين ولا التمس

(١٦٥) في النسختين ولا اختاروا

الا تراهم قد اختاروا ما هو اقبح على ما هو احسن من الاسماء والصناعات ومن المنازل والديارات من غير ان يكونوا خدعوا او استكرهوا ، ولو اجتمعوا على اختيار ما هو ارفع ، ورفض ما هو اوضع من اسم او كنية ، وفي تجارة وصناعة ، وفي[166] شهوة وهمة ، لذهبت المعاملات وبطل التمييز . ولوقع[167] التجاذب ثم[168] التغالب ثم التحارب ، ولصاروا عرضاً للتفاني واكلة للبوار . فالحمد لله اكثر الحمد واطيبه على نعمه ، ما ظهر منها وما بطن ، وما جهل منها وما علم .

ذكر الله تعالى الديار فخبر عن[169] موقعها من قلوب عباده فقال « ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم واخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم[170] » . فسوى بين موقع قتل انفسهم وبين الخروج من ديارهم وقال « وما لنا ان لا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا[171] » فسوى بين موقع الخروج من ديارهم وبين موقع هلاك ابنائهم .

فصـــل منه

فقسم الله تعالى المصالح بين المقام والظعن ، وبين الغربة والف الوطن ،

---

(166) في النسختين ومن
(167) ق ولو وقع
(168) ق و
(169) ق يحذف
(170) سورة النساء الآية ٦٦
(171) سورة البقرة الآية ٢٤٦

يقول ابن الفقيه « .. ولكن الله قد خالف بين طبائع الناس ، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الاسماء الا احسنها ، ومن البلاد الا اغذاها ، ومن الامصار الا اوسطها ، ولو كانوا كذلك لتناحروا على الواسطة ، ولتشاحوا على بلاد الغذاء ، وقد قيل في الامثال « عَمَّر الله البلدان بحب الاوطان » .

وقال عبدالله بن الزبير : ليس للناس بشيء من اقسامهم امنع منهم باوطانهم ، وقال الله جل وعز « ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم » فقرن الضن منهم بالاوطان الى الضن منهم بالابدان (البلدان ٢٣٧ – ٨) ومن الواضح ان ابن الفقيه سلخ هذا الكلام من الكلام الوارد في النص المذكور اعلاه

وقد وردت هاتان الآيتان وقول ابن الزبير الذي سيأتي فيما بعد في كتاب (الحيوان ٢٢٧/٣ – ٨) ، كما وردت في كتاب المحاسن والاضداد ص ٦٠

وبين ما هو اربح وانفع[١٧٢] ، حين جعل مجاري الارزاق مع الحركة والطلب ، واكثر من ذلك ما كان مع طول الاغتراب والبعد في المسافة ليفيدك[١٧٣] الامور فيمكن الاختبار ويحسن الاختيار ، والعقل المولود متناهي الحدود ، وعقل التجارب[١٧٤] لا يوقف منه على حد ، الا ترى ان الله لم يجعل الف الوطن عليهم مترصاً[١٧٥] وقيدا مصمتا[١٧٦] ولم يجعل كفاياتهم مقصورة عليهم ، محتسبة لهم في اوطانهم : الا تراه يقول « فأقرأوا ما تيسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله[١٧٧] » فقسم الحاجات فجعل اكثرها في البعد ، وقال عزّ ذكره « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله[١٧٨] » فأخرج الكلام والاطلاق على مخرج العموم ، فلم يخص ارضاً دون ارض ، ولا قرباً دون بعد .

فصل منه

ونحن وان أطنبنا في ذكر جملة القول في الوطن وما يعمل في الطبائع ، فانا لم نذكر خصال بلدة بعينها ، فنكون قد خالفنا الى تقديم المؤخر وتأخير المقدم .

قالوا : ولم نجهل ولم نذكر ان نفس الالف تكون من صلاح الطبيعة حتى ان اصحاب الكلاب[١٧٩] ليجعلون هذا من مفاخرها على جميع ما يعاشر الناس في دورهم من اصناف الطير وذوات الاربع ، وذلك ان صاحب المنزل اذا هجر[١٨٠] منزله واختار غيره لم يتبعه فرس ولا بغل ولا حمار ولا ديك ولا دجاجة ولا حمامة ولا حمام ولا هر ولا هرة ولا شاة[١٨١] ولا عصفور ، فان العصافير تألف دور الناس ، ولا تكاد تقيم فيها اذا خرجوا منها .

والخطاطيف تقطع اليهم لتقيم فيها الى اوان حاجتها الى الرجوع الى

---

(١٧٢) في النسختين وارفع

(١٧٣) فدك القطن نفشه ، ولم تذكر كلمة فيدك في لسان العرب ١٢/٣٦١) .

(١٧٤) ق التجار

(١٧٥) ل . مفترض ، والمترص المحكم (لسان العرب ٨/٢٧٥) .

(١٧٦) المصمت الذي لا جوف فيه (لسان العرب ٢/٢٧٥) .

(١٧٧) سورة المزمل الآية ٢٠

(١٧٨) سورة الجمعة الآية ١٠

(١٧٩) في النسختين (الكلأ) ؛ والتصليح يقتضيه سياق الكلام

(١٨٠) في النسختين (هجم) والتصليح يقتضيه السياق

(١٨١) ق يحذف

اوطانها • وليس شيء من هذه الانواع مما تبوأ في الدور باجتلابهم لها ولا ما تبوأ في دورهم مما ينزع اليهم[182] أحن من الكلب فأنه يؤثره على وطنه ويحميه ممن يغشاه ، فذكروا الكلب بهذا الخلق الذي تفرد به دون جميع الحيوان[183] •

وقالوا في وجه آخر اكرم الصفايا اشدها ولهاً الى اولادها ، واكرم الابل احنها الى اعطانها ، واكرم الافلاء اشدها ملازمة لامهاتها ، وخير الناس آلفهم للناس[184] •

فصل منه

وقلتم خبرونا عن الخصال التي بانت بها قريش عن جميع الناس • وانا اعلم انك لم ترد هذا ، وانما اردت الخصال التي بانت بها قريش عن[185] سائر العرب ، كما ذكرنا في الكتاب الاول الخصال التي بانت بها العرب عن العجم ، لان قريشاً والعرب قد يستوون في مناقب كثيرة ، قد تلقى[186] في العرب الجواد المبرز[187] وكذلك الحليم والشجاع حتى يأتي على خصال حميدة • ولكنا نريد الخصائص التي في قريش دون العرب •

فمن ذلك انا لم نر قرشياً انتسب الى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا في قبائل العرب الاشراف رجالا الى الساعة ينتسبون في قريش ، كنحو

---

(182) ق يحذف

(183) يقول الجاحظ في كتاب البغال « وكل شيء ينتج ويولد ويتربى في منازل الناس من طائر وسبع وبهيمة اذا تحول صاحب الدار لم يتحول معه منها شيء ، واثرت الاوطان على صاحب الدار . الا الكلب فانه يؤثره على وطنه ، ويموت دونه ، ويصبر على جفائه » (رسائل الجاحظ ٣٠٥/٢ طبعه عبدالسلام هارون)

ويقول في كتاب الحيوان « والسنانير اذا انتقل اربابها من دار الى دار ، كان وطنها احب اليها منهم وان اثبتت أعيانهم ، فان هم حووها فانكرت الدار لم تقم على معرفتهم ، فربما هربت من دارهم الحادثة ولم تعرف دارهم الاولى ، فتبقى مترددة ، اما وحشية واما مأخوذة واما مقتولة والكلب يخلي الدار ، ويذهب مع اهل الدار ، والحمام في ذلك كالسنور » (٣١٤/٥) .

(184) وردت هذه الفقرة في رسالة الجاحظ في الحنين الى الاوطان (٣٨٩/٢) ولكنه ذكر « اشدها حنيناً الى اوطانها » بدل « احنها الى اعطانها » ، وذكر « المهارة » بدل « الافلاء »

(185) في النسختين (من)

(186) في النسختين (يلفى)

(187) في النسختين (الميرن)

الذي وجدناه في بني مرة بن عوف ، والذي وجـدناه من ذلك في بني سليم وفي خزاعة وفي قبائل شريفة .

ومما بانت قريش ، انها لم تلد في الجاهلية ولداً (في غيرها[١٨٨]) قط . ولقد اخذ ذلك منهم سكان الطائف لقرب الجوار وبعض المصاهرة ، ولانهم كانوا حمسا ، وقريش حمستهم .

ومما بانت به قريش من سائر العرب ان الله تعالى جاء بالاسلام وليس في ايدي جميع العرب سبية[١٨٩] من جميع نساء قريش ، ولا وجـدوا في جميع ايدي العرب ولداً من امرأة من قريش .

ومما[١٩٠] بانت به قريش من سائر العرب انها لم تكن تزوج احدا من اشراف العرب الا على ان يتحمس ، وكانوا يزوجون من غير ان يشـترط عليهم ، وهي عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب .

---

(١٨٨) **هذه اضافة من عندنا ، تجعل للجملة معنى مقبولا ، ويكون المقصود** بها ان قريشا لم يكن لها في الجاهلية ولـد سبيت امـه فعاش في قبيلة السابين ؛ او قد يكون قصده ان قريشاً لم تلد ولداً قط في غير قبائل الحمس ، وان ثقيفاً اخذت منهم ذلك . والمعنى الاخير قد يؤيده ما جاء في الفقرتين التاليتين في النص .

ومن المناسب ان نذكر هنا ان ما ذكره الجاحظ عن ثقيف ورد بالحرف تقريباً في نص في كتاب الحيوان ، ولكن في سياق موضـوع آخر فقد قال « وقد كان بين خزاعة وبقايا جرهم ما كان حتى انتزعوا البيت منهم . وقد كان بين ثقيف وقريش لقرب الدار والمصـاهرة والتشابه في الثروة والمشاكلة في المجاورة تحاسد وتنافر ، وقد كان هناك فيهم الموالي والحلفاء والقطان والنـازلة ومن يحج في كل عام » (الحيوان ٢١٥/٧) ؛ ومع ان هذا النص يشير الى احدى ميزات قريش الجديرة بالذكر في كتاب البلدان ، الا اننا لا نستطيع الجزم بوجودها في اصل الكتاب .

جاء في كتاب البلدان لابن الفقيه (١٨) عن شرف قريش « وكانوا يتزوجون في اي القبائل شاؤوا ولا يشترط عليهم في ذلك ، ولا يزوجون احداً الا بعد ان يشترطوا عليهم ان يكونوا حمساً على دينهم ، ويدان لهم وينتقل اليهم ، فحمسوا خزاعة ودانت لهم ، وحمسوا عامر بن **صعصعة ودانت لهم ، سوى من حمسوا من عدد الرجـال » . ومن** الواضح ان ابن الفقيه قد اخذ هذه العبارة من الجاحظ ، ويبدو ان ما جاء فيه اقرب الى نص اصل الكتاب ، غير اننا ابقينـا النص على حاله حرصاً على الامانة

(١٨٩) ل (نسبة)

(١٩٠) ل (وما)

وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزو ، لما فيه من الغصب والغشم[191] واستحلال الاموال والفروج من العرب[192] .

(غير[193]) انهم مع تركهم الغزو (كانوا[194]) غزوا مثل ايام الفجار وذات نكيف[195] .

الا ترى انهم عند بنيان الكعبة قال رؤساؤهم لا تخرجوا في نفقاتكم على هذا البيت الا من صدقات نسائكم ومواريث ابائكم ، ارادوا مالاً لم يكسبوه ، ولا يشكون انه لم يدخله من الحرام شيء .

ومن العجب ان كسبهم لما قل من قبل تركهم الغزو ، ومالوا الى الايلاف والجهاد ، لم يعتريهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل خلقه في الطباع[196] فاعطوا الشعراء كما يعطي الملوك ، وقروا الاضياف ، ووصلوا الارحام ، وقاموا بنوائب زوار البيت . فكان احدهم يحيس الحيسة في الانطاع فيأكل منها القائم والقاعد والداخل والراكب ، واطعموا بدل الحيس الفالوذج ، الا ترى امية بن الصلت يقول ويذكر عبدالله بن جدعان :

له داع بمكة مشمعل وحفص فوق دارته ينادي
الى ردح من الشيزي ملأى لباب البر يلبك بالشهاد[197]

فلباب البر هو هذا النشا . والشهاد يعني به العسل .

الا ترى عمر بن الخطاب يقول اتروني لا اعرف طيب الطعام لباب البر لصغار المعزى يعني خبز الحواري بصغار الجدي .

ولقد مدحتهم الشعراء كما يمدح الملوك ، ومدحتهم الفرسان والاشراف واخذوا جوائزهم ، منهم دريد بن الصمة ، وامية بن ابي الصلت .

ومن خصالهم انهم لم يشاركوا العرب والاعراب في شيء من جفائهم

---

(191) ق (الغصب والقشم) ل (الغضب والغشم)
(192) ل يحذف
(193) اضافة من عندنا
(194) ق يحذف
(195) في النسختين (ذات كهف) وهي ايام انتصرت فيها قريش على كنانة انظر المنمق ص ١٢٤ .
(196) ق طباع .
(197) ذكرها الثعالبي في ثمار القلوب ص ٦٠٩ دون ان يشير الى مصدره . وقد ورد البيت الثاني في لسان العرب ٢٢٨/٤

وغلظ شهواتهم وكانوا لا يأكلون الضباب ولا شيئا من الحشرات .

الا ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم اتوا(١٩٨) خوانه بضب، فقال ليس من طعام قومي(١٩٩) لانهم لم يكونوا يحرشون(٢٠٠) الضباب ويصيدون اليرابيع ويملون القنافذ ، اصحاب الخمر والخمامير وخبز التنانير .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انا افصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن ابي بكر(٢٠١) » .

ومن ذلك ان جميع قبائل العرب(٢٠٢) انما كانت القبيلة لا تكاد ترى وتسمع الا من قبيلتها ورجالها ، فليس عندهم الا عند قبيل واحد من البيان والادب والرأي والاخلاق والشمائل والحلم والنجدة والمعرفة الا في الفرط ،

---

(١٩٨) ق اتى

(١٩٩) ق يحذف . وقد جاء في كتاب الحيوان « روى انه اتى به على خوان النبي (ص) فلم يأكله وقال ليس من طعام قومي » (٧٧/٦)

(٢٠٠) الحرش تحريك اليد عند جحر الضب ليخرج اذا ظن انه حية (الحيوان ١٦٥/٤)

(٢٠١) لقد اورد هذا الحديث الثعالبي في ثمار القلوب (٢٨ ــ ٢٩) مع اضافة في اخره « فاني يأتيني اللحن » تبدو هذه الفقرة بشكلها الحالي مقحمة ولعل ذلك راجع الى ان الناسخ اقتطعها من كلام أطول . وجدير بالذكر ان الثعالبي نقل الحديث المذكور في آخر كلام عن بني سعد لم يشر الى مصدره ، ولعله اخذه من اصل كتاب الجاحظ وكلام الثعالبي الذي يسبق هذا الحديث « وسعد من بين قبائل العرب مخصوصه بالفصاحة وحسن البيان ، وكان النبي (ص) مسترضعاً فيهم ، وضئره حليمة السعدية هي التي تسلمته من عبدالمطلب فحملته الى المدينة ، فكانت ترضعه وتحسن تربيته ، ولما ردته الى مكة نظر اليه عبدالمطلب وقد نما نموّ الهلال ، وهو يتكلم بفصاحة فامتلأ سرورا وقال . جمال قريش ، وفصاحة سعد ، وحلاوة يثرب .

(٢٠٢) افتتح الثعالبي كتابه (ثمار القلوب) بذكر خصائص قريش وعدد منها مجاورتهم بيت الله ، وتفردهم ببعض الوظائف ، وحفاظهم على دين ابراهيم ثم قال :

ومنها كونهم قبلة العرب ، وموضع الحج الاكبر ، يؤتون من كل اوب بعيد وفج عميق ، فترد عليهم الاخلاق والعقول والآداب والالسنة واللغات والعادات والصور والشمائل عفواً بلا كلفة ولا غرم ، ولا عزم ولا حيلة ، فيشاهدون ما لم تشاهده قبيلة ، وليس من شاهد الجميع كمن شاهد البعض ، ولا المجرب كالغمر ، ولا الاريب كالغتل ؛ فكثرت الخواطر ، واتسع السماع ، وانفسحت الصدور بالغرائب التي تتخذ ، وتزاوجت فتناتجت وتوالدت فصادفت قريحة جيدة ، وطينة كريمة والقوم في الاصل مرشحون للامر الجسيم ، فلذلك صاروا ادهى العرب ، واعقل البرية ، واحسن الناس بياناً ، وصار احدهم يوزن بامة من الامم ،

وكانت العرب قاطبة[٢٠٣] ترد مكة في ايام الموسم وترد اسـواق عكاظ وذا المجاز،وتقيم هناك الايام الطوال،فتعرف قريش لاجتماع الاخلاق لهم الشمائل والالفاظ والعقول والاحلام[٢٠٤] وهي وادعة ، وذلك قائم لها راهن عندها في كل عام يتملك عليهم فيقتسمونهم فتكون غطفان للمغيرة ، وبنو عامر لكذا ، وتميم لكذا ، تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها وخصالها[٢٠٥] .

فصـــل منـــه (*)

قالوا وقد تعجب الناس من ثبات[٢٠٦] قريش[٢٠٧] وجزالة[٢٠٨] عطاياهم واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم[٢٠٩] من التجـارة وقد علموا[٢١٠] ان البخل والنظر[٢١١] في الطفيف مقرون في التجارة ، وذلك خلق من اخلاقهم

وكذلك ينبغي ان يكون الامام ، فاما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان يزن جميع الامم . (١١)

ومن الواضح ان فكرة ما نقلناه اعلاه تشبه الافكار التي في مخطوطه البلدان . ولم يذكر الثعالبي من اين استقاها ، غير ان ما نقله بعدها من كـلام يطابق بنصه ما جاء في المخطوطة (ص ١٦) كما سنبين ؛ فهل ان الثعالبي لفق في كلامه نصين للجاحظ اقتبس كلا منهما من كتاب ، ووضعهما معاً ؟ ام ان الثعالبي نقل كل الكلام عن الجاحظ من كتـاب البلدان ولكن ناسخ المخطوطة لم يحافظ على الاصل فصاغه بالشـكل المذكور اعلاه ؟

(٢٠٣) ل (قاطنة)

(٢٠٤) ق يحذف

(٢٠٥) ل يحذف

(*) ان هذا الفصل موضوع في المخطوطة بعد الفصل الذي تكلم فيه عن بني هاشم ،اي انه كان آخر الفصول المتعلقة بمكة . ولكن لما كان الجاحظ يتابع فيه الكلام عن قريش فالمعقول ان يأتي متصلا به ، كما انه ليس من المنطق ان يكون مسبوقاً بالكلام عن بني هاشم او عن البيت . لذلك قدمنا موضعه كما اشرنا في المقدمة

(٢٠٦) من هنا منقول من ثمار القلوب للثعالبي ص ١١ ، وهو استمرار لما نقله **عن لجاحظ واشرنا اليه في هامش ٢٠٢ ص ٤٦٩ .**

(٢٠٧) ثمـار (جودهم)

(٢٠٨) ثمـار (جزيل)

(٢٠٩) ثمار اموالهم المكتسبة

(٢١٠) ثمار (ومعلوم)

(٢١١) ق البطر

وعلى ذلك شاهد اهل الترجيح[٢١٢] والمكسب والتدنيق[٢١٣] . فكان في ثبات[٢١٤] جودهم العالي على جود[٢١٥] الاجواد ، وهم[٢١٦] قوم لا كسب لهم الا[٢١٧] من التجارة عجب من العجب[٢١٨] ثم جاء ما هو اعجب من هذا واهم[٢١٩] ، وذلك انا قد علمنا ان الروم قبل التدين بالنصرانية كانت تنتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالا فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال والقود[٢٢٠] والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفا ، ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة وسرت في لحومهم ودمائهم ، فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ، خرجوا من حدود الغالبين الى ان صاروا مغلوبين .

والى مثل ذلك صارت حال التغزغز[٢٢١] من الترك بعد ان كانوا انجادهم وحماتهم وكانوا يتقدمون الخرلخية[٢٢٢] ، وان كانوا في العدد اضعافهم ، فلما دانوا بالزندقة ، ودين الزندقة في الكف والسلم اسوأ من دين النصارى ، نقصت تلك الشجاعة وذهبت تلك الشهامة .

---

(٢١٢) ل الترقيح

(٢١٣) ثمار : التي هي صناعتهم والتجار اهل التربيح والتكسيب والتدنيق

(٢١٤) ثمار : اتصال

(٢١٥) ثمار : يحذف

(٢١٦) ثمار : من

(٢١٧) ثمار : يحذف

(٢١٨) الى هنا ينتهي ما نقله الثعالبي

(٢١٩) ل واطم

(٢٢٠) ق القور

(٢٢١) ق التفرر

(٢٢٢) الخرلخية هو الاسم الذي اطلقه العرب على قبيلة قارلوق التركية التي كانت تسكن اراضي شاسعة شرقي فرغانة ؛ اما التغزغز فهو الاسم الذي اطلقه العرب على قبيلة طوقوز او غوز اي التسعة اوغوز ، التركية وكانت تسكن الاراضي التي تقع في الشمال الغربي من مناطق الخرلخية وتمتد الى بلاد الصين .

إن اشارة الجاحظ الى الضعف الذي انتاب التغزغز بعد اعتناقهم المانوية ، ذات اهمية فريدة ، وقد ناقشها ماركارت في بحث له ، وتعرض لها كل من بارتولد (انظر كتابه تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمه احمد السعيد سليمان وخاصة ص ٥١ فما بعد) ومينورسكي في تعليقه على كتاب حدود العالم (ص ٢٦٣ فما بعد) حيث ناقشا راي ماركارت وفصلا في التاريخ المعقد لهاتين القبيلتين

وقريش[٢٢٣] من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد[٢٢٤] في الدين فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الاموال واستحسان[٢٢٥] الغصوب[٢٢٦] فلما تركوا الغزو[٢٢٧] لم تبق مكسبة سوى التجارة فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم والى النجاشي بالحبشة ، والى المقوقس بمصر وصاروا باجمعهم تجاراً خلطاء[٢٢٨] .

وبانوا بالديانة والتحمس ، فحمسوا[٢٢٩] عامر بن صعصعة ، وحمسوا الحارث بن كعب ، فكانوا ، وان كانوا حمسا ، لا يتركون الغزو والسبي ووطء النساء واخذ الاموال . فكانت نجدتهم وان كانت انقص فأنها على حال النجدة ، ولهم في ذلك بقية . وتركت قريش الغزو بتة ، فكانوا مع طول ترك الغزو اذا غزو كالاسود على فرائسها[٢٣٠] مع الرأي الاصيل والبصيرة النافذة فليس من العجب ان تبقى نجدتهم ، وتثبت بسالتهم ، ثم يعلون الانجاد والاجواد ويعرفون الشجعان ، وهاتان الاعجوبتان بليتان[٢٣٢] وقد علموا[٢٣٣] ان سبب[٢٣٤] استفاضة النجدة في جميع اصناف الخوارج وتقدمهم في ذلك[٢٣٥] انما هو بسبب الديانة ، لانا نجد عبيدهم ومواليهم ونسائهم يقاتلون مثل قتالهم ، ونجد السجستاني وهو عجمي ، ونجد اليماني والبحراني والجزري[٢٣٦] ، وهم من عرب ، ونجد (اباضية عمان وهي بلاد عرب ، واباضية[٢٣٧]) تاهرت وهي بلاد عجم كلهم في القتال والنجدة (وثبات العزيمة والشدة في البأس سواء[٢٣٨]) فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف

---

(٢٢٣) من هنا يعود الثعالبي الى النقل عن الجاحظ . وفيه : واعجب من ذلك انهم . وانظر ايضا ص ٤٧٠ .

(٢٢٤) ق وتشددوا . ثمار التشدد

(٢٢٥) ثمار : فلما زهدوا في

(٢٢٦) ل الغصب

(٢٢٧) ثمار : يحذف . ق (فلم تركوا) .

(٢٢٨) الى هنا مذكور في ثمار القلوب ؛ والعبارات التي تليها غير مذكورة

(٢٢٩) ق يضيف (بني)

(٢٣٠) ق (براسنها) ل (براثنها) والتصليح من ثمار القلوب .

(٢٣٢) من هنا مذكور في ثمار القلوب ص ١٧٤

(٢٣٣) ل (علم) ثمار (علمنا)

(٢٣٤) ل (السبب) ثمار (داعي)

(٢٣٥) ثمار (فيها) .

(٢٣٦) ل (والخوزي) ق (والخوارزمي) والتصليح من ثمار القلوب

(٢٣٧) ثمار : يحذف

(٢٣٨) ثمار : سواء في ثبات العزيمة والقوة والشدة متكافئين

انسابهم وبلدانهم (انسا[٢٣٩]) في هذا دليل على ان الذي سوى بينهم[٢٤٠] التدين بالقتال[٢٤١] . وضروب كثيرة من هذا الفن ، وذلك كله مصور في كتبي[٢٤٢] والحمد لله .

---

(٢٣٩) ل (فما) ثمار (و)

(٢٤٠) ثمار : يضيف (هو)

(٢٤١) الى هنا ينتهي نقل ثمار القلوب .

(٢٤٢) لعل الجاحظ يشير في هذا الى كتابه مناقب الاتراك حيث ورد فيه ما يشبه هذا الكلام في شجاعة الخوارج ، واخلاق اصحاب الحرف الذي يليه حيث قال « على انا قد علمنا ان العلة التي عمت الخوارج بالنجدة استواء حالاتهم في الديانة ، واعتقادهم ان القتال دين ، لاننا حين وجدنا السجستاني ، والخراساني ، والجزري ، واليمامي ، والمغربي ، والعماني ، والازرقي منهم والنجدي ، والاباضي والصفري ، والمولي ، والعربي ، والعجمي ، والاعرابي ، والعبيد والنساء ، والحائك والفلاح كلهم يقاتل مع اختلاف الانساب وتباين البلدان ـ علمنا ان الديانة هي التي سوت بينهم ، ووفقت بينهم في ذلك .

كما ان كل حجام من الارض من اي جنس كان ، ومن اي بلد كان ، فهو يحب النبيذ . كما ان اصحاب الخلقان والسماكين والنخاسين والحاكة في كل بلد من كل جنس ، شرار خلق الله في المبايعة والمعاملة ، فعلمنا بذلك ان ذلك خلقة في هذه الصناعات ، وبلية في هذه التجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك » (رسائل الجاحظ ٥٢/١) ولا ريب ان الكلام عن اصحاب الحرف استطراد يبدو ضعيف الصلة بالموضوع الذي يتحدث عنه .

ان كلام الجاحظ في اصحاب الحرف الذي ورد في مخطوطة البلدان يشبه ما ذكره عنهم في كتاب الحيوان حيث قال « ذكر الله عز وجل رد قريش ومشركي العرب على النبي (ص) قوله ، فذكر الفاظهم وجهد معانيهم ومقادير هممهم التي كانت في وزن ما يكون من جميع الامم في انبيائهم فقال « تشابهت قلوبهم » ؛ وقال « تواصوا به » ؛ ثم قال « وخضتم كالذي خاضوا » ومثل هذا كثير .

الا ترى انك لا تجد بدا في كل بلدة ، وفي كل عصر ، للحاكة فيهم على مقدار واحد وجهة واحدة من السخط والحمق والغباوة والظلم ، وكذلك النخاسون على طبقاتهم من اصناف ما يبيعون ، وكذلك السماكون والفلاسون ، وكذلك اصحاب الخلقان كلهم في كل دهر وفي كل بلد ، على مثال واحد ، وعلى جهة واحدة . وكل حجام في الارض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ ، وان اختلفوا في البلدان والاجناس والاسنان » (١٠٥/٢)

ومن الواضح ان هذا النص في كتاب الحيوان اقرب في كلماته الى نص المخطوطة ، وهو مذكور مع الكلام عن قريش ، وان كانت الصلة بين الكلامين غير واضحة ؛ بينما ورود النص في مناقب الاتراك بعد

وقد تجدون عموم السخف والجهل والكـذب في المواعيد والغش في الصناعة[٢٤٣] ، في الحاكة (فدل استواء حالاتهم في ذلك على استواء عللهم ، ليست هناك علة الا الصناعة ، لان الحـاكة[٢٤٤]) في كل بلد شيء واحد ، وكذلك النخاس[٢٤٥] ، وصاحب الخلقان وبياع السمك ، وكذلك الملاحون واصحاب السماد أولهم كآخرهم وكهولهم كشبانهم ، ولكن قل في اسـتواء الحجامين في حب النبيذ[٢٤٦]

فصـــل منه

قد قلنـا في الخصـال التي[٢٤٧] بانت بها قريش دون العرب ، ونحن ذاكرون وبالله التوفيق ، الخصال التي بانت بها بنو هاشم دون قريش[٢٤٨] .

فاول ذلك النبوة التي هي خصال جمـاع الخير واعلاهـا وافضـلها واجلها واسناها .

الكلام عن الخوارج تظهر فيه صلة اقوى من حيث تشابه سلوك الناس المنتمين الى مسلك واحد ، ولكن صلته غير واضحه بقريش .

وعلى كل فان تكرر ذكر النص في كتابي مناقب الاتراك ، والحيوان ، دليل على ان النص للجاحظ ، غير انه يبدو في مخطوطتنـا استطراداً ضعيف الصلة بسياق الموضوع ،اللهم الا اذا كان قد ذكر في الاصـل اشياء أخرى تبرز العلاقة بين محتوى النص وسياق الموضوع

(٢٤٣) ق (والصناعة)

(٢٤٤) ق محذوفة

(٢٤٥) ق (النحاس)

(٢٤٦) تبدو هذه الجملة مبتورة ، ولكن يصعب معرفة اصل كلامه فيها .

(٢٤٧) ق يحذف

(٢٤٨) لقد تكلم الجاحظ بعد هذه المقدمة عن خصائص آل علي بن ابي طالب ، وأقحم في وسطها فقرة عن خصائص ابي طالب ؛ وأخر الكلام عن الامام علي الى آخر الفصل . ولا ريب ان هذا التنظيم مخـالف للتسلسـل الزمني ومخالف لترتيب الامور حسب اهميتها ، والا فكيف يوضـع الكلام عن الامام علي بعد الكلام عن اولاده واحفاده . ثم كيف يوضـع الكلام عن ابي طالب وسط الكلام عن خصائص نسل الامـام علي ومن دون اية صلة مع ما قبله او بعده من الـكلام ؛ ان هذا الاضـطراب في الترتيب قد يرجع الى طريقة الجاحظ في اتباع تسلسل خاص خاضع للاستطراد بالدرجة الاولى ؛ او انه يرجع الى ان الناسخ غير في ترتيب تسلسل كلام الجاحظ ، فنقله بهذا الشكل الذي يبدو لنا اضطراباً . وقد آثرنا ان نبقي النص على حاله مكتفين بالاشارة الى ما يبـدو على تنظيمه من اضطراب .

ومما يلفت النظر ان المخطوطة تشير الى انه سيتكلم في هذا النص عن بني هاشم . ولكنه في الواقع اقتصر على ابي طالب ، والامام علي ، واولاده ونسله ؛ ولم يتكلم عن رجال بني هاشم في الجاهلية ، وفي ثمار القلوب للثعالبي كلام للجاحظ عن هاشم ، وفي كتاب الحيوان كلام عن عبدالمطلب يناسب وروده هنا ؛ ولما كان الكلام عن هاشم في ثمار القلوب مكمل للكلام الذي نقله من البلدان عن قريش ، فنحن نرجح انه اقتبسه من كتاب البلدان ؛ اما ما جاء عن عبدالمطلب في كتــاب الحيوان فقــد يخالف في لفظه ما جاء في هذا الكتاب ، غير اننا نرجح انه حافظ على الافكار العامة التي في البلدان ؛ شأنه في ذلك ما فعل عن المدينة ، وعن الاهــواز .

لقد ذكر الثعالبي « لا مزيد على وصف الجاحظ لهم (قريش) ومدحه اياهم ، وتخصيصه بني هاشم منهم ، فانه رحمه الله القى جمة فصاحته ، واستنزف بحر بلاغته ، في فصل له وهو قوله :

العرب كالبدن ، وقريش روحها ، وهاشم سرها ولبها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وبنو هاشم ملح الارض ، وزينة الدنيــا ، وحلى العالم ، والسنام الاضخم ، والكاهل الاعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر لطيف والطينة البيضاء ، والمغرس المبــارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، وثهلان ذو الهضبات في الحلم ، والسيف الحسام في العزم ، مع الاناة والحزم ، والصفح عن الجرم ، والاغضــاء عن العثرة ، والعفو عند القــدرة ؛ وهم الانف المتقدم ، والسنام الاكوم ، والعزم المشمخر ، والصيانة والسر ، وكالماء الذي لا ينجسه شيء ، وكالشمس لا تخفى بكل مكان وكالنجم للحيران ، والماء البارد للظمآن ، ومنهم الثقلان والطيبان والسبطان والشهيدان ، واسد الله ، وذو الجناحين ، وسيد الوادي ، وساقي الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والحبر ، والانصار انصارهم ، والمهاجر من هاجر اليهم او معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل منهم ، والحواري حواريهم ، وذو الشهادتين لانه شهد لهم ، ولا خير لهم او فيهم او لهم او معهم او انضاف اليهم ، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وامام الاولين والآخرين ، وســيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، الذي لم تتم نبوة الا بعد التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذي عم برسالته ما بين الخافقين ، واظهره على الدين كله ولو كره المشركون فقال « نذيراً للبشر » وقال « قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً » وقال عليه السلام « بعثت الى الاحمر والاسود والى الناس كافة » وقال « نصرت بالرعب من مسيرة شهر ، واعطيت جوامع الكلم ، وعرضت علي مفاتيح خزائن الارض » وقال « انا اول شافع ومشفع واول من تنشق عنه الارض » . ولقد اقسم الله سبحانه وتعالى بحياته في القرآن فقال « لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون » وقال « ن والقلم » استفتاح وقسم ، ثم قــال « وما يسطرون » ، فأكد القسم ، وفسر المعنى ثم قصد نبيه فقال

ثم وجدنا فيهم ثلاثة[٢٤٩] رجال[٢٥٠] بني اعمام في زمان واحد كلهم[٢٥١] يسمى علياً وكل واحد من الثلاثة[٢٥٢] سيد فقيه عالم عابد يصلح للرياسة والامامة (مثل[٢٥٣])

علي بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب بن عبدالمطلب (بن هاشم)

وعلي بن الحسين بن علي بن ابي طالب بن عبدالمطلب (بن هاشم)

« وانك لعلى خلق عظيم » ولا عظيم اعظم ممن عظمه الله ، كما انه لا صغير اصغر ممن صغره الله .

فاي ممدوح اعظم وافخر ، واسنى واكبر ، من ممدوح مادحه الله ، وناقل مديحه وراوية كلامه جبريل ، والممدوح محمد صلى الله عليه وسلم »(ثمار القلوب ١٣ـ١٥)وانظرايضا زهر الاداب للحصري٥٩/١

وقد اورد الجاحظ في كتاب الحيوان في وصف عبدالمطلب ما يناسب ذكره في خصائص بني هاشم ورجالها ؛ ومع انه ليس لدينا دليل قاطع ايجابي على ذكر عبدالمطلب في كتاب البلدان ، الا اننا نرجحه لان سياق الكلام يقتضي ذلك ، ولان الجاحظ ذكر في كتاب الحيوان نصوصاً تشبه ما اورده في كتاب البلدان ، فاجدر ان يكون وصف عبدالمطلب في كتاب الحيوان هو تكرار لما جاء في كتاب البلدان ، علماً بان هذا الوصف غير موجود في ما نشر من كتابه « فضل بني هاشم »

لقد جاء في كتاب الحيوان (٢/٢٤٥) :

لم يكن لعبدالمطلب في قريش نظير ، كما انه ليس في العرب لقريش نظير ، وكما انه ليس للعرب في الناس نظير ، وذلك حين لم تكن فيه خصلة اغلب من اختها ، وتكاملت فيه وتساوت ، وتواقت اليه ، فكان الطبع في وزن المعرفة ، فقالوا عند ذلك : سيد الابطح ، وسيد الوادي ، وسيد قريش . واذا قالوا سيد قريش فقد قالوا سيد العرب ، واذا قالوا سيد العرب فقد قالوا سيد الناس ، ولو كان مثل الاحنف الذي برع في حلمه وبرع في سائر خصاله لذكروه بالحلم ، ولذلك ذكر قيس ابن زهير في الدهاء ، والحارث بن ظالم في الوفاء ، وعتيبة بن الحارث في النجدة والثقافة ، ولو ان الاحنف بن قيس رأى الحاجب بن زرارة ، او زراره بن عدس ، او حصن بن حذيفة ، لقدمهم على نفسه ، وهؤلاء عيون اهل الوبر لا يذكرون بشيء دون شيء لاستواء خصال الخير فيهم .

(٢٤٩) من هنا اورده الثعالبي في لطائف المعارف ٨٦ ـ ٧ وذكر انه منقول عن الجاحظ .

(٢٥٠) الثعالبي : يحذف

(٢٥١) الثعالبي : كل منهم

(٢٥٢) الثعالبي : منهم

(٢٥٣) الثعالبي : يحذف

علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب (بن هاشم[٢٥٤])

ثم وجدنا[٢٥٥] ثلاثة (رجال[٢٥٦]) بني اعمام (في زمان واحد كلهم يسمى[٢٥٧]) محمداً ، وكلهم سيد فقيه[٢٥٨] عابد يصلح للرياسة والامامة مثل[٢٥٩] محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب (بن هاشم[٢٦٠] ومحمد بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم ، ومحمد بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم وهذا من اغرب ما يتهيأ[٢٦١] في العالم ويتفق في الازمنة وهذا[٢٦٣] لا يشركهم فيها احد ولا يستطيع ان يدعي مثلها احد[٢٦٣]

ولبني هاشم واحدة مبرزة وثانية نادرة يتقدمون بها على جميع الناس : وذلك انا لانعرف في جميع مملكة العرب وفي جميع مملكة العجم وفي جميع الاقاليم السبعة ملكا واحدا ملكه في نصاب واحدة[٢٦٤] وفي مغرس رسالة الا من بني هاشم فان ملكهم العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعم وارث ، والعم أب . ولا تعلم امة تدعي مثل هذا لملكها . وهذا شيء سمعته من ابي عبيدة ومنه استمليت هذا المعنى .

---

(٢٥٤) الثعالبي : يحذف من الثلاثة .

(٢٥٥) الثعالبي : بنوهم

(٢٥٦) الثعالبي : يحذف

(٢٥٧) الثعالبي : كل منهم

(٢٥٨) الثعالبي : يضيف عالم

(٢٥٩) الثعالبي (وهم)

(٢٦٠) الثعالبي يحذف

(٢٦١) ل (تهيأ)

(٢٦٣) الثعالبي (وهذه فضيلة) .

(٢٦٣) الى هنا ينتهي النقل عن الثعالبي . وقد ذكر الجاحظ مثل هذا الكلام مع اختلاف اللفظ في كتابه فضل بن هاشم على بنى عبد شمس ص١٠٨ وكذلك نقل الاربلي فى كتابه كشف الغمة مثل هذا النص مع بعض الاختلاف في اللفظ عن رسالة للجاحظ لعلها في تفضيل الامام علي .
وقد نقل الثعالبي في لطائف المعارف (٨٦) نصاً عن الجاحظ يتسق مضمونه مع الكلام المذكور اعلاه حيث قال ، لا تتناسق الاسماء الا في الملوك والسادة ، اما ترى الى بهرام بن بهرام بن بهرام في ملوك الفرس ، والحارث بن الحارث بن الحارث من ملوك غسان ، والحسن بن الحسن ابن الحسن من سادة الاسلام .

(٢٦٤) النصاب هو الاساس او الاصل ، وقد وردت الكلمة في شعر مذكور في البيان والتبيين (٥٤/٣) ويبدو ان المقصود هو ان اساس ملكه شرف الدم ورسالة النبوة

ولبني هاشم مذ ملكوا هذه الدفعة دون ايام علي بن ابي طالب والحسين ابن علي الى يومنا هذا مائة وست عشرة سنة ، كان اول بركتهم ان الله تعالى رفع الطواعين والموتان الجارف ، فانهم كانوا يحصدون حصدا بعد حصد[٢٦٦] .

ثم الذي تهيأ واتفق وخص به آل ابي طالب من الغرائب والعجائب والفضائل ما لم نجده في احد سواهم . وذلك ان اول هاشمي ، هاشمي الابوين ، كان في الدنيا ولد لابي طالب ، لان اباهم عبد مناف وهو ابو طالب ، ابن شيبة وهو عبدالمطلب ، ابن هاشم وهو عمرو وهو ابو شيبة ، وشيبة هو عبدالمطلب وهو ابو الحارث وسيد الوادي غير مدافع ، ابن عمرو وهو هاشم ، ابن المغيرة وهو عبد مناف[٢٦٧]

ثم الذي تهيأ لبني ابي طالب الاربعة ان اربعة اخوة كان بين كل واحد منهم وبين اخيه في الميلاد عشر سنين سواء وهذا عجب[٢٦٨] .

ومن الغرائب التي خصوا بها ، اعني ولد ابي طالب ، انا لا نعلم الاذكار في بلد من البلدان ، وفي جيل من الاجيال ، الا في[٢٦٩] اهل خراسان ممن دونهم

---

(٢٦٦) **انظر عن رفع الطواعين لطائف المعارف ص ١٥٩ وانظر ايضا ثمار القلوب ص٦٨ الحيوان ٦/٢١٨ .**

(٢٦٧) من الواضح ان النص المذكور اعلاه ، وقد اثبتناه كما جاء في مخطوطتي الكتاب ، لايوضح ما قصده الجاحظ من ان آل ابى طالب انفردوا بكونهم تحدروا من ابويين هاشميين ، وذلك لانه كرر اسماء اباء آل ابى طالب ، **ولم يذكر نسب امهم وهي فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبد مناف** وهي اول هاشمية ولدت لهاشمي ، (عمدة الطالب لابن عنبة ص ٣٠)

ولعل الجاحظ وسع في هذا الكلام ما رواه هشام بن الكلبي عن الشرقي بن القطامي الذي سأل يوماً جلاسه ، من منكم يعرف علي بن عبد مناف بن شيبة بن عمرو بن المغيرة بن زيد وهو من اشرف الناس بعد رسول الله ص ، فقال القوم والله ما نعرفه ، فقال هشام هو علي بن ابى **طالب ، وابو طالب اسمه عبد مناف ، وعبدالمطلب اسمه شيبة، وهاشم اسمه عمرو وعبد مناف اسمه المغيره وقصي اسمه زيد (لطائف العارف ص ٨٥) .**

(٢٦٨) يقول ابن عنبة ، وقد كان ابو طالب اولد اربعة بنين وهم طالباً وعقيلا وجعفراً وعلياً رضوان الله عليهم اجمعين ، وكان كل منهم اكبر من الاخر **بعشر سنين (عمدة الطالب ص ٣٠ ، انظر ايضا ص ٥٨) .**

(٢٦٩) اضافة من عندنا يقتضيها السياق

فأن الاذكار فيهم فاش ، كما انك لا تجد من وراء بلاد مصر الا مئناثا[٢٧٠] ، ثم لا نرى فيهن مفذا[٢٧١] بل لا نرى الا التوأم ومن البنـات ، مهيـأ في آل ابي طالب من الاذكار مـا لم يعرفه في قديم الدهر وحديثه ، ولا فيمـا قرب من البلدان ولا فيما بعد ، وذلك « ان آل ابي طالب احصـوا منذ[٢٧٢] اعوام وحصلوا وكانـوا قريبـا من الفين وثلاثماية » ثم لا يزيد عدد نسائهم على رجالهم الا دون العشر ، وهذا عجب .

وان كنت تريد ان تعرف[٢٧٣] فضل البنات على البنين ، وفضل اناث الحيوانات على ذكورها ، فأبدأ وخذ[٢٧٤] اربعين ذراعاً عن يمينك وأربعـين ذراعاً عن يسـارك ، واربعـين خلفك ، واربعـين أمامـك ثم عد الرجـال والنساء حتى تعرف ما قلنا،فتعلم ان الله تعالى لم يحلل للرجل الواحد من النساء أربعاً،ثم اربعاً متى وقع بهن موت أو طلاق،ثم كذلك للواحد[٢٧٥] ما بين الواحدة من الإماء الى مايشاء من العدد،مجموعات ومفترقات،لئلا تبقين[٢٧٦] لاذات ازواج ثم انظر في شأن ولادات البيض وذوات الاولاد فانك سترى في دار خمسين دجاجة وديكا واحداً ، ومن الابل الهجمة[٢٧٧] وفحلا واحداً ، ومن الحمير العانة وعيراً واحداً .

فلما حصلوا كل ميناث[٢٧٨] وكل مذكار ، فوجدوا آل ابي طالب قد

---

(٢٧٠) يقول ابن الفقيه ، ونساء اهل مصر والقبط ضد نساء خراسان ، لان نساء خراسان يلدن اذكاراً ، ونسـاء القبط لا يكاد يرى منهن الاميناث وتلد الاثنين والثلاثة والاربعة ، ولا نعلم ناساً في الارض اكثـر ذكرانا من آل ابى طالب (البلدان ٧٥) ومن الواضح انه اخذ هذا النص عن الجاحظ

(٢٧١) المفذة هي التي تلد ولداً واحدا (لسان ٥/٣٧) وقد ذكر الجاحظ ، والفيلة لا تلد التوام ، وهي تفذ وتفرد ، (الحيوان ٧/٢٢٧) .

(٢٧٢) نقل متز هذا النص عن مخطوطة المتحف البريطاني في كتابه (الحضارة الاسلامية ١/٢٦٤ الترجمة العربية . الطبعة الاولى)

ومن الواضح ان جمل الفقرة المذكورة اعلاه واضحة المعنى ، غير ان تسلسل الجمل في هذه الفقرة مضطرب ، ولا نعلم هل ان الاضطراب راجع الى اصل الكتاب ام الى تشوية الناسخ

(٢٧٣) ل تتعرف .

(٢٧٤) ل (فخذ)

(٢٧٥) في النسختين (الواحد)

(٢٧٦) ق (يبقين)

(٢٧٧) جاء في لسان العرب « هجم الناقة حلبها .. والهيجمة اللبن قبل ان يمخض .. والهجمة القطعة الضخمة من الابل ، (١٦/٨٢ – ٣) ويقتضي سياق كلام الجاحظ انه يقصد بالهجمة العدد الكبير من النياق .

(٢٧٨) ق (ميناس)

برعوا على الناس وفضلوا[٢٧٩] ، عرف الناس موضع الفضـيلة لهم[٢٨٠] والخصوصية •

وفي ولد ابي طالب اعجوبة اخرى وذلك انه لم يوجد قط في اطفالهم طفل يحبو ، بل يزحف زحفاً لئلا ينكشف منه عن شيء يسوءه ليكون اوفر لبهائه وادل على ما خصوا به •

ولهم من الاعاجيب خصـلة اخرى ، وذلك ان عبيدالله بن زياد قتل الحسين في يوم عاشوراء وقتله الله يوم عاشوراء في السنة الاخرى •

وقالوا لا نعلم موضع رجل من شجعان اصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان له من عدد[٢٨١] القتلى ما كان لعلي رضـوان الله عليه ، ولا كان لاحد مع ذلك من قتل الرؤساء والسادة والمتبوعين والقادة ما كان لعلي بن ابي طالب ، وقتل رئيس واحد وان كان دون بعض الفرسـان في الشدة ، اشد،فان قتل الرئيس أرد على المسلمين واقوى لهم من قتل الفارس الذي هو اشد من ذلك السيد • وايضاً انه قد جمع بين قتل الرؤساء وبين قتل الشجعان •

وله اعجوبة اخرى وذلك انه مع كثرة ما قتل ومـا بارز ومـا مشى بالسيف الى السيف ، لم يجرح قط ، ولا جرح انسانا الا قتله •

ولا نعلم في الارض متى ذكر السبق في الاسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكـرت[٢٨٢] النجـدة والـذب وشـدة[٢٨٣] الغنـاء عن الاسـلام ، ومتى ذكر الفقه في الدين ومتى ذكر الزهد في الاموال التي تشاجر الناس عليهـا ، ومتى ذكر الاعطاء في الماعون ، كان مذكورا في هذه الحالات كلها الا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه •

قالوا (وكان الحسن يقول قـد يكون الرجل عالما[٢٨٤] وليس بعابد ، وعابدا وليس بعالم ، وعابدا وليس بعاقل ، وعاقلا وليس بعابد ، وسليمان بن يسار عالم عاقل عابد[٢٨٥] فانظر اين تقع[٢٨٦] خصال سـليمان من خصـال علي بن ابي طالب رضي الله عنه •

---

(٢٧٩) يقول ابن الفقيه ، ولا نعلم ناسـاً فى الارض اكثر ذكرانا من آل ابى طالب ، (البلدان ٧٥) والجملة المذكرة فى النص مبتورة يبدو فيها نقص لا نعرف مقداره

(٢٨٠) فى النسختين له

(٢٨١) فى النسختين (عذر)

(٢٨٢) فى النسختين (ذكر)

(٢٨٣) ل والشدة

(٢٨٤) ق (نائما)

(٢٨٥)ورد هذا النص فى البين والتبيين (٢٤٢/١) كما يلى ، وقال الحسن البصرى يكون الرجل عابدا ولا يكون عاقلا ، ويكون عابدا وعاقلا ولا يكون عالما ، وكان مسلم بن يسار عاقلا عالما عابدا •

(٢٨٦) ل (يقع)

ولم يكن قصدنا في اول هذا الكتاب الى ذكر بني هاشم ، وكان قصدنا الاخبار عن مكة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ، ولكن ذكر خصال مكة جر ذكر[٢٨٧] خصال قريش ، وذكر خصال قريش جر ذكر خصال بني هاشم ، فان احببت ان تعرف جملة القول في خصال بني هاشم فانظر في كتابي الذي الذي فرقت فيه بين خصال بني عبد مناف وبين بني مخروم وفرقت ما بين بني عبد شمس[٢٨٨] فانه هناك اوفر واجمع ان شاء الله تعالى .

فصـــل منه (٢٨٩)

وفتح مكة يسمى فتح الفتوح ، وهو بيت الله ، واهله اهل الله[٢٩٠] ، وحجاجه زوار الله ، وهو البيت العتيق الحرام ، وفيه الحجر وهو الحجر

---

(٢٨٧) ل (جر ذلك)

(٢٨٨) لعله يشير الى كتابه فضل بني هاشم على عبد شمس وقد نشر بعضه السندوبي في رسائل الجاحظ ٦٧ وقد ذكر ياقوت كتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم وهو مفقود (الحاجري ٢٨٩) .

(٢٨٩) ان هذا الفصل مكانه في المخطوطة قبل الفصل الذي تكلم فيه عن خصال بني هاشم ، وهو يبدو في ذلك مقحماً ، ويجعل التسلسل مضطربا ، ونرى كما ذكرنا في المقدمة ، ان يكون مكانه في آخر الكلام عن مكه ، فيتم بذلك التسلسل ، ويلاحظ ان الثعالبي وضع الكلام عن بيت الله بعد الكلام عن قريش ، وان الجاحظ في كتاب الحيوان نقل خصائص الحرم ثم اعقبها مباشرة بالكلام عن المدينة ، وكل هذا يدل على ان هذا الفصل المخصص للحرم كان في الاصل بعد الفصول المخصصة لقريش وبني هاشم (وهو كترتيب الثعالبي) ، وانه يتلوه الكلام عن المدينة (وهو كما تكلم الجاحظ في كتاب الحيوان) .

وتبدو الجملة الاولى ، وان كانت صحيحة ، مقحمة في هذا الفصل الذي يتكلم فيه الجاحظ عن البيت الحرام وقد ورد في الثعالبي النص التالي: كما ان اهل مكة اهل الله والحجاج زوار الله فالكعبة بيت الله الذي جعله مثابة للناس ، وحطة للخليل ، وحلة للذبيح ، وقبلة لسيد ولد آدم وخاتم الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكعبة لامته التي هي خير الامم وقد كانت العرب في الجاهلية لا تبني بنياناً مربعا تعظيما للكعبة ، وقد كانت تحلف ببيت الله كما قال زهير :

فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

وقال النابغة :

فلا ورب الذي قد زرته حججاً وما هريق على الانصاب من جسد

وقال الله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام « ربنا اني اسكنت ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

(٢٩٠) ل يحذف ٢٩١ ق (من مزمزم) ل (زمزمة) ٢٩٢ ل (طيراً ابابيل)

الاسود ، وله زمزم وهو زمزم[٢٩١] جبريل صلوات الله عليه ، ومقام ابراهيم ، وماء زمزم لما شرب له العاكف فيه والبادي سواء .

وبسبب كرامته ارسل الله طير الابابيل[٢٩٢] وحجارة السجيل .

واهله اهل حسن ولقاح لا يؤدون اتاوة ، ولهم السقاية ، ودار الندوة والرفادة ، والسدانة[٢٩٣] .

قال : واقسم الله تعالى بها ، قال « لا اقسم بهذا البلد وانت حل بهذا البلد[٢٩٤] » وقوله عند ذكره (لا اقسم) اي اقسم ، وانما قوله (لا) في هذا الموضوع صلة ، ليس على معنى (لا) الذي هو خلاف (نعم)

وقالوا : ولو كان قوله « وليطوفوا بالبيت العتيق[٢٩٥] » يراد به تقادم البنيان وما تعاوره من كرور الزمان ، لم يكن فضله على سائر البلدان ، لان الدنيا لم تخل من بيت ودار وسكان وبنيان . وقد مرت الايـام على مصر وحران والحيرة والسوس الاقصى واشباه ذلك ، فجعل البيت العتيق صفة له ، ولو كان ذهب الى ما يعنون كان من قبل ان يعتق وتسـر عليه الازمنة ليس بعتيق ، وهـذا الاسـم قد اطلق لـه اطلاقا ، فاسمه البيت العتيق ، كما ان اسمه بيت الله ، ومن زعم ان الله تعالى حرمه يوم خلق السموات والارض ، فقولنا هذا مصداق[٢٩٦] له . ومن زعم انه انما صـار حراما مذ حرمـه ابراهيم

---

(٢٩٣) يقول الثعالبي عن اهل مكة «ما تفردوا به من الايلاف والوفادة والرفادة والسقاية والرياسة واللواء والندوة (ثمار القلوب ١٠) .

ويقول الهمداني « كان شرف مكة امنه ، ومقام ابراهيم فيه ، وحج الانبياء اليه ، وان اهله في الجاهلية كانوا لقاحاً لم يؤدوا اتاوه ولا ملكهم ملك » . (البلدان ١٠)

ويقول ابن رسته ، بعد ان يسرد خصائص الحرم التي سننقلها فيما بعد «وان العرب لم تبن بيتاً مربعا احتراما للكعبة ثم البركة والشفاء الذي يجده من شرب من ماء زمزم على وجه الدهر وكثرة من يقيم عليه فيجد الشفاء بعد أن لم يدع حمة الا اتاها واقام عندها وشرب منها واستنقع فيها . هذا مع شأن الفيل والطير الابابيل والحجارة السجيل وانها لم تزل أمنا ولقاحاً لا تؤدي اتاوه ولا تدين للملوك ولذلك سمي البيت العتيق لانه لم يزل حراً لا يملك (الاعلاق النفيسة ٥٨) ومن الواضح ان تشابه نص الهمداني وابن رسته مع نص الجاحظ يدل على اقتباسـهما من الجاحظ .

(٢٩٤) سورة البلد الاية ١

(٢٩٥) سورة الحج الاية ٢٩ .

(٢٩٦) ل (مصدق)

كأنه قد زعم انه قد كان[٢٩٧] ولا يقال له عتيق ولا حرام •

قالوا ومما يصدق[٢٩٨] تأويلنا انه لم يعرف الا وهو لقاح[٢٩٩] ولا أدى اهله اتاوة قط[٣٠٠] ، ولا وطئته الملوك بالتمليك[٣٠١] ، وان سابور ذا الأكتاف وبختنصر اتوه وابا يكسوم وغيرهم قد ارادوه[٣٠٢] فحال الله تعالى دونه ، فتلك عادة فيه وسنة جارية له ، ولولا ان تبّع اتاه حاجاً على جهة التعظيم والتدين بالطواف فحجه وطاف به وكساه الوصايل، لاخرجه الله منه • وحجه بعض ملوك غسان ولخم ، وهم نصارى ، تعظيماً له ولما جعل الله له في القلوب •

والعتيق يكون من رق[٣٠٣] العبودية كالعبد يعتقه مولاه ، ويكون عتيقا من النار كالتائب من الكبائر وكالرجل يدعو الى الايمان فيستجاب[٣٠٤] له ، وتسلم[٣٠٥] ناس على يده فهو ايضاً عتقاؤه[٣٠٦] ويكون الرجل عتيقاً من عتق الوجه ، وربما كان عتيقاً كما يقال للفرس عتيق وليس بهجين ولا مقرف[٣٠٧] وقد سمي ابو بكر بن ابي قحافة رضوان الله عليه عتيقا من طريق عتق الوجه ومن طريق انهم طلبوا المثالب والعيوب التي كانت تكون في

---

(٢٩٧) ق (كان) . والجملة هنا غير سلسلة فكأنه اراد « قد كان زمن لم يقال له فيه عتيق ولا حرام » .

(٢٩٨) ل (مصدق)

(٢٩٩) اللقاح القوم لم يدينوا للملوك ولم يصبهم في الجاهلية سباء . وقد وردت الكلمة في شعر للحيقطان رواه الجاحظ في كتاب فخر السودان (رسائل الجاحظ ١٨٤/١ طبعة عبدالسلام هارون .

وقلتم لقاح لا تؤدي اتاوة   فاعطاها اريان من الفرايس

(٣٠٠) في النسختين (فقط)

(٣٠١) ذكر ابن الفقيه في شرف مكة « وان اهلها كانت لقاحاً لم يؤدوا اتاوه قط ولا ملكهم ملك (البلدان ١٨)وواضح ان هذه العبارة مأخوذة من الجاحظ وقد ذكر ابن الفقيه ايضا اجبار قريش العرب ان يطرحوا ازاود الحل اذا دخلوا الحرم وتكليفهم الناس ان يفيضوا من المزدلفة . ولعله اقتبس ذلك ايضا من الجاحظ

(٣٠٢) في النسختين (ادوه)

(٣٠٣) ق (رب)

(٣٠٤) ق (فينجاب)

(٣٠٥) في النسختين (وتعليم)

(٣٠٦) ل (عتقاؤه) .

(٣٠٧) المقرف الذي امه عربية وابوه اعجمي ، وقد ورد ذكر هذه الكلمة في كتاب البغال (رسائل الجاحظ ٢٦٩/٢)

ولا ريب ان النص الوارد اعلاه فيه اقتضاب وغموض ، لم نهتد الى اصله

الامهات والآباء فلم يجدوها ، قالوا ما هذا الا عتيق(٣٠٨) .

---

(٣٠٨) ان كلام الجاحظ الوارد في المخطوطة بالرغم مما فيه من معلومات وملاحظات ثمينة ، الا انه يبدو مبتورا ، ويلاحظ ان الجاحظ اورد في كتاب الحيوان صفحة عن خصائص الحرم تناسب معلوماتها الكلام عن بيت الله هنا .
وقد اشرنا في المقدمة ان الجاحظ كثيرا ما يكرر الكلام الواحد في اكثر من كتاب من كتبه ، وانه نقل في كتاب الحيوان نصوصا موجودة في مخطوط البلدان ولعل ما اورده عن خصائص الحرم في كتاب الحيوان هو تكرار لما ذكره في كتاب البلدان .

وقد اورد الثعالبي في ثمار القلوب ولطائف المعارف عن خصائص الحرم نفس كلام الجاحظ عنها في كتاب الحيوان ، مع اضافات قليلة ، ومع ان الثعالبي لم يذكر مصدره ، الا ان التطابق الحرفي تقريبا بين ما ذكره وما ورد في كتاب الحيوان يثبت بان الثعالبي اخذ هذه الخصائص عن الجاحظ ، ولما كان نص ما نقله اوسع من نص كتاب الحيوان ، ولما كان الثعالبي يكثر النقل من كتاب البلدان ، فالراجح ان ما ورد في الثعالبي هو النص المنقول من كتاب البلدان وهو مفقود من مخطوطتنا ، ونحن ننقله فيما يلي

« فمن خصائص الحرم انه بواد غير ذي زرع ولا شجر ، ويوجد فيه كل ثمرات الاشجار والزرع وغيرها .

ومن خصاصه ان الذئب يريغ الظبي ويعارضه ويصيده ، فاذا دخل الحرم كف عنه . ومن خصائصه انه لايسقط على الكعبة حمام الا وهو عليل عرف ذلك من امتحنه وتعرف حاله ، ولا يسقط عليه ما دام صحيحاً .

ومن خصائصه ان الذئب يريح الظبي ويعارضه ويصيده ، فاذا دخل ومن خصائصه انه لا يراه احد ممن لم يكن رآه الا ضحك أو بكى .

ومنها انه اذا اصاب المطر الباب الذي من شق العراق كان الخصب في تلك السنة بالعراق واذا اصاب الذي من شق الشام كان الخصب بالشام ، واذا عم جوانب البيت كان الخصب عاما في البلدان .

ومنها ان الجمار ترمى في ذلك المرمى منذ يوم حج الناس البيت على طول الدهر ، ثم كانت الى اليوم على مقدار واحد ، ولولا انه موضع الايه والعلامة والاعجوبة التي فيها ، لقد كان كالجبال ، هذا من غير ان تكسحه السيول او يأخذه الناس

ومن سننهم ان من علا الكعبة من العبيد فهو حر ، لا يرون الملك على من علاها ، ولا يجمعون بين علوها وذل الرق ، وبمكة رجال من الصلحاء لم يدخلوها قط اعظاما لها ، (ثمار القلوب ١٧ ـ ١٨ لطائف المعارف ١٥٢ وانظر كتاب الحيوان للجاحظ ١/٣ وقد اورد ابن الفقيه في كتاب البلدان (ص ١٩) بعض الخصائص المذكورة اعلاه ، مما يدل على اقتباسه اياها من الجاحظ وقد ذكر ابن رسته في الاعلاق النفسية (٥٧ـ٨) هذه الخصائص ثم عدم بناء العرب بيتا مربعا وقد ورد هذا الكلام في نهاية الارب للنويري (٣١٩/١)

فصـــل منه
في ذكر المدينـة

وامر المدينة عجب وفي تربها وثراها[1] وهوائها دليل وشاهد وبرهان على قول النبي صلى الله عليه وسلم « انها طيبة تنقي خبثها وتنصع طيبها »[2]، لان من دخلها واقام فيهـا كائنا مـا كان من النـاس فانه يجـد في تربتها وحيطانها[3] رائحة طيبة ليس لها اسـم في الارابيح ، وبذلك السبب طاب طيبهـا ؛ والمعجونات من الطيب فيهـا ، وكذلك العود وجميع البخـور ، يضاعف طيبها في تلك البلدة على كل بلد استعمل ذلك الطيب بعينه فيها ، وكذلك صيّاحها[4] والبلح[5] والاتـرج والسفرجل اعني المجعـول منهـا سخبا[6] للصبيان والنساء ، فان ذكروا طيب سابور بطيب اريـاح الرياحـين وذلك رياح[7] رياحينها وبساتينها وانوارهـا ، ولذلك يقـوى في زمـان ويضعف في زمان • ونحن قد ندخل دجلة في نهر الابلـة بالاسـحار ، فنجـد من تلك الحدائق ونحن في وسط النهر مثلما يجد اهل سابور من تلك الرائحة •

وطيبة التي يسمونهـا المدينـة ، هـذا الطيب خلقة فيهـا وجوهريـة منها ، وموجود في جميع احوالها ، وان الطيب والمعجونات لتحمل اليها فتزداد فيها طيباً ؛ وهي ضد[8] قصبة الاهواز وانطاكية ، فان الغوالي تستحيل فيها الاستحالـة الشديدة • ولسنا نشك ان ناساً يتنابون[9] المواضع التي يباع فيها النوى المنقع فيستنشقون تلك الرائحة ، يعجبون بها ويلتمسونها بقـدر فرارنا من مواقع النوى عندنا بالعراق ، ولـو كان من النـوى المعجـوم ومن نـوى

---

(١) في النسختين (وترابها) وهي لا تنسجم مع الكلمة التي قبلها

(٢) في الحيوان « تلفظ خبثها وينصع طيبها » (١٤٢/٣) وفي ثمار القلوب « تنفي خبثها ويتضوع طيبها » (٥٤٩) وفي ابن رسـته « تلفظ خبثها ويتضوع طيبها « (الاعلاق النفيسة ٥٥.)

(٣) الحائط عند أهل المدينة هو البستان

(٤) في النسختين (صباحها) ولا يستقيم المعنى بها ؛ والصياح من التمور التي تشتهر بها المدينة

(٥) في النسختين (والثلج) ، ولـكن المعنى لا يستقيم فرجحت كلمـة البلح التي وردت في نص ثمار القلوب

(٦) « السخاب قلادة تتخذ من قرنفل ومسك ومحلب يلبس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء ، والجمع سخب (لسان العرب ٤٤٤/١)

(٧) ل (ريح)

(٨) ل (عنـد)

(٩) ل (يتناولون)

الافواه[10] ونحن لا نشك ان الرجل الذي يأكل بالعراق اربع جرادق[11] في مقعد واحد من الميساني والموصلي[12] انه لا يأكل من اقراص المدينة قرصين • ولو كان ذلك لغلظ فيه او لفساد كان في حبه وطحينه لكان ذلك في التخم وسوء الاستمراء ولتولد على طول الايام من ذلك اوجاع وفساد كثير •

ولم يكن بها طاعون قط ولا جذام[13]

وليس لبلدة من البلدان (من الشهرة في الفقه ما لهم ولرجالهم)[14]

وذكر عبدالملك بن مروان روح بن زنباع فمدحه فقال : جمع ابو

---

(١٠) المعجوم الذي لم يطبخ فيلين وقد ورد في بيت لعلقمة بن عبدة

سلاءة كعصا النهدي عل لها منظم بن نوى فران معجوم

(البيان ٣/١٢٠) اما نوى الافواه فلم اهتد الى معناه

(١١) الجردقة الرغيف ، وهي فارسية الاصل وقد وردت في البيان والتبيين (٣/٢٢١)

(١٢) يقتضي سياق الكلام ان المقصود بها انواع من الحنطة منسوبة الى ميسان والموصل

(١٣) انظر في ذلك وفاء الوفاء ١/٣٦ فما بعد

(١٤) **في الاصل (من الشهوة في العفة ما لهم ولرجالهم)، وقد رجحت تقويم** النص بالشكل الذي اثبته لانه اكثر اتساقا مع ما يليه

وقد اعاد الجاحظ وصف المدينة في موضعين من كتاب الحيوان ، محافظا فيهما على جملة الافكار الواردة في هذا المخطوط ولكن بالفاظ مغايرة . ونثبت فيما يلي ما كتبه عن المدينة في كتاب الحيوان

والمدينة هي طيبة ، ولطيبها قيل تلفظ خبثها ، وينصع طيبها ، وفي ريح ترابها وبنة تربتها وعرف ترابها ، ونسيم هواءها ، والنعمة التي توجد في سككها وفي حيطانها ، دليل على انها جعلت آية حين جعلت حرما .

وكل من خرج الى منزل مطيب الى استنشاق ريح الهواء والتربة في كل بلدة فانه لا بد عند الاستنشاق والتثبت من ان يجدها فتنة . **فذلك على طبقات من شأن البلدان ، الا ما كان في مدينة الرسول ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فللصياح والعطر والبخور والنضوح** من الرائحة الطيبة اذا كان فيها اضعاف اضعاف ما يوجد له في غيرها من

وربة بلدة يستحيل فيها العطر وتذهب رائحته كقصبة الاهواز

وقد كان الرشيد هم بالاقامة بانطاكية وكره اهلها ذلك ، فقال شيخ منهم وصدقه يا امير المؤمنين ، ليست من بلادك ولا بلاد مثلك ، لان الطيب الفاخر يتغير فيها ، حتى لا ينتفع منه بكثير شيء ، والسلاح يصدأ فيها ، ولو كان من قلعة الهند ، ومن طبع اليمن ، ومطرها ربما اقام شهرين ليس فيه سكون . فلم يقم بها .

البلدان ، وان كان الصياح اجود ، والعطر افخر ، والبخور اثمن .

ثم ذكر المدينة فقال : وان الجويرية السوداء لتجعل في رأسها شيئا من بلح وشيئا من نضوح ، مما لا قيمة له ، لهوانه على اهله ، فتجد لذلك خمرة طيبة ، وطيب رائحة لا يعدلها بيت عروس من ذوي الاقدار . حتى ان النوى المنقع الذي يكون عند اهل العراق في غاية النتن ، اذا طال انقاعه يكون عندهم في غاية الطيب ، والله سبحانه وتعالى اعلم (الحيوان ١٤٢/٣ ـ ١٤٣)

وقد نقل معظم هذا النص مع اختلاف في قراءة بعض الكلمات ، كل من الثعالبي في ثمار القلوب (٥٤٩) وفي لطائف المعارف (١٥٥) ، وكذلك ابن رسته في الاعلاق النفيسة (٥٩) وابن الفقيه في كتاب البلدان (١٨ ، ٧٥) وياقوت في معجم البلدان (٤٦٧/٤)

وقد تكلم الجاحظ عن طيب المدينة في مكان آخر من كتاب الحيوان حيث قال « وقد علمنا ان لرائحة الطيب فضيلة اذا كان بالمدينة ، وان الناس اذا وجدوا ريح النوى المنقع بالعراق هربوا منه ، واشراف اهل المدينة يتنابون المواضع التي يكون فيها ذلك التماسا لطيب تلك الرائحة .

. . ويزعمون ان شيراز من بين قرى فارس لها فغمة طيبة ، ومن مشى واختلف فى طرقات مدينة الرسول (ص) وجد فيها عرفا طيبا وبنة عجيبة لا تخفى على احد ولا يستطيع ان يسميها . ولو ادخلت كل غالية وكل عطر من المعجونات وغير المعجونات ، قصبة الاهواز او قصبة انطاكية ، لوجدته قد تغير وفسد اذا اقام فيها الشهرين والثلاثة (الحيوان ٢٢٩/٧) .

(١٥) روح بن زنباع الجذامي كان كاتبا لعبدالملك ثم ولي فلسطين وقد ورد هذا النص في لطائف المارف (١٥٩) وورد في ص٦١ « ان ابا زرعة شامي الطاعة ، عراقي الخط ، حجازي الفقه ، فارسي الكتابة » لم يفرد ناسخ المخطوطة لهذه الفقرة فصلا خاصا ، مما يشعر انها مذكورة مع الفصل المخصص للمدينة ، وقد يؤيد هذا ان النص يمتدح فقه اهل الحجاز . غير ان الثعالبي اورد هذا النص ضمن الكلام عن محاسن بلاد الشام ،ولما كان الثعالبي يتابع في كتابه ، الجاحظ ، فنحن نرجح ان هذه الفقرة هي جزء من كلام الجاحظ عن الشام .

لقد خصص الثعالبي في « لطائف المعارف » اكثر من ثلاث صفحات لخصائص الشام فقال : من خصائصها انها كانت مواطن الانبياء عليهم السلام على وجه الارض ، وهي الى الآن موضع الزهاد والعباد الذين يقال لهم الابدال ، وهم الذين جاءت الآثار بان الله تعالى انما يرحم العباد ويعفو عنهم بدعائهم لا يزيدون على السبعين ولا ينقصون عنها ، وكلما توفى واحد قام بدل منه يسد مكانه وينوب منابه ويكمل عدد السبعين ، ولا يسكنون مكانا من ارض الله الا جبل اللكام وهو من الشام يتصل بحمص ودمشق ، ويسمى هناك لبنان ، فهم يضافون تارة الى اللكام واخرى الى لبنان

ومن خصائص الشـام التفـاح الذي يضرب به المثل في الحسن والطيب ، وكان يحمل الى الخلفاء كل سنة منها ثلاثون الف تفاحة في القرابات ، ويقال انها اعبق بالعراق منها بالشام .

ومن خصائصها الزيت يضرب المثل به في الصفاء والنظافة ، وانما قيل له : الزيت الركابي لانه كان يحمل على الابل من الشام ، وهي اكثر بلاد الله زيتوناً وفيه ما فيه من البركة والمنفعة .

ومن خصائصها الزجاج الذي يضرب به المثل في الرقة والصـفاء فيقال : ارق من زجاج الشام ، واصفى من زجاج الشام .

ومن خصائصها مسجد دمشق الذي هو من عجـائب الدنيا في الحسن . وليس في الارض مسجد مثله . والكلام يطول في اوصافه .

وحكى اللحام عن شيخ من اهل دمشق يجاور مسجدها انه قال : لم تفتني صلاة فيه منذ عقلت ، ولم ادخله في وقت من الاوقات الا وقعت عيني في نقوشه وتحاسينه وتزايينه وتزاويقه على شيء لم تقـع عليه فيما تقدم .

وهذه جملة كافية .

ومن خصائصها : غوطة دمشق التي هي احسن واطيب نزه الدنيا الاربع وهي : غوطة دمشق ، ونهر الابلة ، وشعب بوان وصغد سمرقند .

وسمعت ابا بكر الخوارزمي يقول : قد رأيتها كلها فكانت غوطة دمشق احسنها واعجبهـا ، ولم اميز بين رياضهـا المزخرفة بالانوار والازهار وبين غدرانها المعمورة بطير الماء التي هي احسن من التدارج والطواويس ، ولم اشبهها الا بالجنة او صورتها منقوشـة على وجـه الارض ومن خصائصهـا : كنيسـة الرهـا ومنـارة الاسـكندرية ، وقنطرة سنجة .

والرها من عمل حران ، وفي كنيستها من العجائب والتصـاوير والتزاويق والطلسمات والقنـاديل التي تشتعل من غير اشـعال مـا يطول ذكره .

ويقال ان الطاءين من خصائص الشام ، يعني الطاعة والطاعون .

ويقال : ان اهل الشام مخصوصون من بين جميع اهل البلدان بطاعة السلطان ، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمشايعة . وانما وريت زناد معاوية بهم ، لانه كان في اطوع جند منهم ، وكان علي بن ابي طالب رضي الله عنه في اعصى جند من اهل العراق على الضد .

وذكر عبدالملك بن مروان روح بن زنباع فقال : قد جمع ابو زرعة : فقه الحجاز ، ودهاء العراق ، وطاعة الشام .

ولم تزل الشام كثير الطواعين حتى صارت تواريخ يطول الكلام في ذكرها ، ومنها كانت تمتد الى العراق وغيرها ، ولم يقع بالحرمين طاعون قط . ولما ولي بنو العباس انقطـع الطاعون (لطـائف المعارف

وقد نقل الثعالبي في ثمار القلوب ما جاء في هذه الكلام عن جبل اللكام والابدال (٢٣٢) واشـار الى تفـاح الشـام وزجاجـه وزيتـه (٥٣١ ــ ٢) والطاعون (٥٤٧) وطـاعة اهل الشـام وما يتعلق بابي

فصـــــل منه

في ذكر مصر

قال ابو الخطاب[١٦] لم يذكر الله عز وجل شيئاً من البلدان باسمه في القرآن كما ذكر مصر حيث يقول « وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته اكرمي مثواه[١٧] » وقال « فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين[١٨] » قال « واوحينا الى موسى واخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة[١٩] » وقال تعالى « اهبطوا مصر فأن لكم ما سألتم[٢٠] » وقال في آية « أليس لي ملك مصر

زرعة (٥٤٦) وتزويق المسجد (٥٢٥)

ونقل الثعالبي في ثمار القلوب (٥٢٥)

« وقال الجاحظ وهو يمدح بعض الرؤساء : واما قول الشاعر

يزيدك وجهها حسناً — اذا ما زدته نظراً

وقول الدمشقيين : ما تأملنا قط تاليف مسجدنا وتركيب محرابنا وفيه مصلانا الا انار لنا التأمل واخرج لنا التفرس غرائب حسن لم نعرفها ، وعجائب صنعة لم نقف عليها ؛ وما ندري اجوهر مقطعاته اكرم في الجواهر ام تنضيد اجزائه في الاجزاء ؛ فان ذلك معنى مسروق مني في وصفك ومأخوذ من كتبي في مدحك .

ويقول ياقوت « وحكي الجاحظ في كتاب البلدان قال : قال بعض السلف : ما يجوز ان يكون احد اشد شوقاً الى الجنة من اهل دمشق ، لما يرونه من حسن مسجدهم ،وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين : طبقته التحتانية اعمدة كبار ، والتي فوقها صغار ، وفي خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء الذهب والاخضر والاصفر . وفي قبلته القبة المعروفة بقبة النسر ، ليس في دمشق شيء اعلى ولا ابهى منظراً منها ولها ثلاثة منائر ، احداها وهي الكبرى كانت ديدباناً للروم ، واقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة » (٢/٥٩٢)

(١٦) ذكر الجاحظ ابو الخطاب في كتاب الحجاب (رسائل ٢/٦٣ ط عبدالسلام هارون) وذكر ابو الخطاب الزراري (البيان والتبيين ٣/٢٩٩) . وذكر الطبري راويتان هما ابو الخطاب حمزة بن علي وابو الخطاب الهجري ونقل عنهما بعض الروايات . وذكر الثعالبي ابو الخطاب الكاتب ونقل عنه شعرا (ثمار القلوب ٥٨٧) ولا نعلم ايهم روى عنه الجاحظ

وقد نقل ابن الفقيه نص ابي الخطاب في كتاب البلدان (٥٨) كما ورد في ياقوت (٤/٥٤٥) دون الاشارة الى المصدر

(١٧) سورة يوسف الآية ٢١

(١٨) سورة يوسف الآية ٩٩

(١٩) سورة يونس الآية ٨٧

وهذه الانهار تجري من تحتي[٢١] وذكر مصر في القرآن بالكناية عن خاصة اسمها فمن ذلك « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه[٢٢] » قالوا هي مدينة منف[٢٣] وهو موضع منزل فرعون • واخبرني شيخ من آل ابي طالب من ولد علي صحيح الخبر[٢٤] منف دار فرعون، ودرت في مجالسه[٢٥] ومشارفه[٢٦] وغرفه وضفافه[٢٧] فاذا (كله[٢٨]) حجر واحد منقور ، فان كانوا[٢٩] هندموه واحكموا بناءه[٣٠] حتى صار في الملاسة واحداً[٣١] لا يستبان[٣٢] فيه مجمع حجرين ولا ملتقى صخرتين[٣٣] فهذا عجب ، ولئن[٣٤] كان جبلا[٣٥] واحداودكا واحدا[٣٦] فنقرته الرجال بالمناقير حتى خرقت[٣٧] فيه تلك المخاريق[٣٨] ان هذا لاعجب[٣٩] وفي القرآن « فلن ابرح الارض حتى يأذن لي ابي او يحكم الله لي وهو خير الحاكمين[٤٠] » قال والارض ها هنا مصر • وفي هذا الموضع كلام حسن ولكنا ندعه مخافة ان نخرج الى غير الباب الذي الفنا له هذا الكتاب

قالوا : وسمى الله تعالى ملك مصر العزيز ، وهو صاحب يوسف ، وسمى

---

(٢٠) سورة البقرة الآية ٦١

(٢١) سورة الزخرف الآية ٥١

(٢٢) سورة يوسف الآية ٣٠

(٢٣) فى النسختين (مرو) والتصليح يقتضيه سياق الجملة التالية

(٢٤) هذه القصة مذكورة في كتاب البلدان عن ابن الفقيه يرويها عن « الشيخ صدوق فيما يحكيه (ص ٥٨) ونقلها ياقوت عن الهمداني ٦٦٧/٤

(٢٥) ياقوت مجالسها

(٢٦) في الاصل ومساوية ، ياقوت ومساربها والتصليح من الهمداني

(٢٧) ياقوت : وغرفها وصفاتها

(٢٨) ياقوت : جميع ذلك

(٢٩) ياقوت : كان قد

(٣٠) الهمداني وياقوت « ولاحكموا بينه »

(٣١) ياقوت بحيث

(٣٢) الهمداني يستبين

(٣٣) ق صخرين

(٣٤) الهمداني وياقوت وان

(٣٥) الهمداني . حجراً

(٣٦) ياقوت والهمداني يحذف

(٣٧) الهمداني تخرقت

(٣٨) ياقوت يضيف في مواضعها

(٣٩) الى هنا ينتهي نقل الهمداني وياقوت

(٤٠) سورة يوسف الآية ٨٠

صاحب موسى فرعون
قالوا : وكان اصل عتو فرعون ملكه العظيم ومملكته التي لا تشبهها مملكة[٤١]

قالوا : ومنهم مؤمن آل فرعون وهي آسية بنت مزاحم
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : سيدة نساء العالم خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم . قال ولما هم فرعون بقتل موسى قالت آسية « لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولداً[٤٢] » وقالت كيف نقتله ووالله ما يعرف الجمرة من التمرة

ومنهم السحرة الذين كانوا قد[٤٣] ابدوا على اهل الارض[٤٤] ، فلما ابصروا بالاعلام وايقنوا بالرهان ، استبصروا وتابوا توبة ما تابها ما عز بن مالك[٤٥] ولا احد من العالمين حتى قالوا لفرعون « فاقض ما انت قاض ، انما تقضي هذه الحياة الدنيا ، انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر[٤٥أ] » .

وجاء في الحديث « من اخرب خزائن الله فعليه لعنة الله » قالوا خزائن الله هي مصر ، اما سمعتم قول يوسف « اجعلني على خزاين الارض[٤٦] » .

وقال عبدالله بن عمر « والبركة عشر بركات ، تسع بمصر والواحدة في جميع الارض[٤٧] » .

---

(٤١) تبدو الجملة مبتورة ولم نهتد الى تكملتها
(٤٢) سورة القصص الآية ٩
(٤٣) ق فـا
(٤٤) ٤٤ ق
(٤٥) ماعز بن مالك صحابي كان قد زنى فاقر على نفسه واتى الرسول فالح عليه في اقامة الحد ، فامر الرسول برجمه فرجم انظر مسند ابن حنبل ٢١٧/٥ والسنن الكبرى للبيهقي ٢٢٥/٨ — ٢٢٨ ومسلم ٣٣/٢ — ٣٥٠ . الاصابة رقم ٧٥٨١ وتأويل مختلف الحديث ٢٣٨ — ٢٤١ وقد ذكره في الحيوان (٤٨٦/٥) وما ذكرناه منقول عن هامش الحيوان
(٤٥أ) سورة طه الآيتان ٧١ — ٧٢
(٤٦) سوة يوسف الآية ٥٥
(٤٧) ابن الفقيه : البلدان ص ٥٧

فصــــل منـــه

قال اهل العراق : سألنا[٤٨] بطريق خرشنه[٤٩] عن خراج الروم ، فذكر مقداراً من المـال وقال هو كذا وكذا قنطاراً ، فنظر بعض الوزراء فاذا[٥٠] خراج مصر وحده[٥١] يضعف على[٥٢] خراج بـلاد الروم[٥٣] اذا جمعت ابواب المال من البلاد جميعاً .

وزعم ابو الخطاب ان ارض مصر جبت[٥٤] اربعة الاف الف دينار[٥٥] .

---

(٤٨) ق (ساكنا)

(٤٩) البطريق من المراتب العليا في رجال الدولة البزنطية وخرشنه مركز ولاية من ولايات البيزنطيين تحادد ملطية انظر ياقوت ٢/٤٣٢ .

(٥٠) النص مذكور في الهمداني ٧٦

(٥١) همداني وحدها

(٥٢) همداني يضيف جمع

(٥٣) النص ورد في لطائف المعارف ١٦٠ ثمار القلوب ٥٣١ منقولا عن الجاحظ

(٥٤) لطائف ، وثمار يضيف (في بعض الازمنة)

(٥٥) ق (اربعة الاف)

وقد اضاف الثعالبي الى هذا نقلا عن الجاحظ

« وزعم غيره انها جبيت الفي الف دينار سوى ما وقفت عليـه من الخيل والدواب ودق الطرز ، وقد علم الناس ان القطن لخراسان ، وأن الكتان لمصر ، ثم للناس من ذلك في تفاريق البلدان ما لا يبلغ مقداره في بعض هذين الموضعين . وربما بلغت قيمة الحمل من دق مصر الذي هو من الكتان لا غير ، مائة الف دينار (كذا) .

وقراطيس مصر للمغرب ككواغيد سمرقند للمشرق .

وحمير مصر موصوفة بحسن المنظر وكرم المخبر ، وكذلك افراسها الا ان بعض البلاد يشارك مصر في عتق الافراس وكرمهـا . وتختص مصر بالحمير التي لا تخرج البلدان امثالها ، وكان الخلفاء لا يركبون الا حمير مصر في دورهم وبساتينهم ، وكـان المتوكل يصـعد الى منـارة سر من رأى على حمار مريسي ، ودرج تلك المنارة من خارج ، واساسها على جريب من الارض وطولها تسع وتسعون ذراعاً . ومريس قريـة بمصر واليها ينسب بشر المريسي .

والثعابين لا تكون الا بمصر ، وهي عجيبة الشان في اهلاك بني آدم . وليس لها عدو الا النمس ــ وهي احدى عجائب الدنيا ، وذلك انها دويبة متحركة كأنها قديدة ، فاذا رأت الثعبان دنت منه ، فينطوي الثعبان عليهـا يريد ان يعضهـا فتحتشي ريحاً ، وتزفر زفرة فتقد الثعبـان قطعتين ، وربما قطعته قطعاً . ولولا النمس لاكلت الثعابين سكان مصر

ومن عيوب مصر انها لا تمطر ، فاذا امطرت كره اهلها ذلك كراهة شديدة . قال الله تعالى «وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته»

فصـــل منـــه (٥٦)

ولا اعلم الفرقة في المغرب الا اكثر من الفرقة في المشرق ، الا ان اهـل المغرب اذا خرجوا لم يزيدوا على البدعة والضلالة . والخارجي في المشرق لا يرضى بذلك حتى يجوزه الى الكفر مثـل المقنع وسنباذ(٥٧) والاصبهبذ وبابك وهذا الضرب .

يعني المطر ، فهذه رحمة مجللة لهذا الخلق ، وهم لها كارهون ، وهي لاهلها غير موافقة ولا تزكو عليها زروعهم

. . واذا هبت بها الرياح المريسية ، وهي الجنوب — ثلاثة عشر يوماً تباعاً اشترى اهل مصر الاكفان والحنوط وايقنوا بالوباء القاتل

وكفاك ما نيل مصر عليه من خلاف جميع الاودية ونضوبه في وقت زيادة الاودية ، وزيادته في وقت نقصان الاودية . وليست التماسيح في شيء من الاودية الا فيه ومضرتها معروفة بلا منفعة بوجه من الوجوه ، ولم ير تمساح قط في دجلة والفرات ولا سيحان وجيحان ولا نهر بلخ » (لطائف المعارف ١٦٠ — ١٦٤)

وقد وردت هذه المعلومات بالنص في ثمار القلوب منســوبة الى الجاحظ في اماكن متفرقة : القراطيس (٥٣٠) الثمابين (٤٢٥) الرياح المريسية (٦٥٦) النيل (٥٦٩) كما وردت نفس المعلومـات عن حمير مصر (٥٣١) وقلة الامطـار (٦٥٥) دون الاشـارة الى اخذهـا من الجاحظ .

واورد الهمداني كلاماً عن انتاج الكتان والحمير المريســية (٦٩) وقلة المطر (٧٤) بما يشبه ما جاء في هذا النص ، كما اورد كلاماً عن التمساح وخصائص النيل

وكل هذا يقنعنا بان هذه المعلومات مستقاة من هذا الكتاب لانها تتصل بنطاق بحثه .

(٥٦) بالرغم من طرافة الملاحظة التي وردت في هذا الفصل ، فان صلته ضعيفة بما قبله وما بعده ، كما ان اقتضابه قد يدل على انه جزء من دراســة اوسع في الاصل . ويلاحظ ان الهمداني تكلم في كتاب البلدان عن المغرب بعد الكلام عن مصر مباشرة ؛ فكانه قد تابع في ذلك الجاحظ في تنظيمــه كتاب البلدان ، غير ان الهمداني اورد عن المغرب مادة لا تبدو انهـا من الجاحظ ، ولم نجد في الكتب من نقل عن الجاحظ حول المغرب

(٥٧) في الاصل سيفاد وهو خطأ واضح من الناسخ . وهؤلاء الاربعة المذكورون قام كل منهم بثورة كلفت الدولة العباسية جهداً ومالاً لاخمادها ، واكثر ثوراتهم كانت في الجبال الواقعة جنوبي بحر قزوين .

فصـــل منــه

وقد علمنا ان لجماعة بني هاشم طابعاً في وجوههم يستبين به كرم العتق وكرم النجار وليس ذلك لغيرهم ، ولقد كادت الاهواز تفسد هذا المعنى على هاشمية الاهواز(٥٩) لولا ان الله غالب على امره ، ولقد كادت طمست على ذلك العتق وحجبته(٦٠)

(٥٩) ق يحذف
(٦٠) ل (ومحبه)

من الواضح ان الجاحظ يتكلم في هذا الفصل القصير عن امرين يتعلقان بالاهواز . فلا بد ان يكون ما ورد هنـا هو جزء من فصـل اطول عن الاهواز . وقد ذكر الثعالبي في لطائف المعارف (١٧٥ ـ ٧) وفي ثمـار القلوب (٥٥٠) .

قال الجاحظ : قصبة الاهواز مخصوصة بالحمى الدائمة اللازمة ، قتاله للغربـاء . على ان حمـاها ليست الى الغريب باسرع منهـا الى القريب . اخبرنا ابراهيم بن العباس عن مشـيخة اهلها عن القوابل انهن ربما قبلن الطفل المولود فيجدونه محموماً ، يعرفن ذلك ويتحدثن به ، قال ولم ار بها وجنة حمراء لصبي ولا لصبية ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك ، وانما وباؤها وحماها في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان .

ولقد قلبت كل من نزلها الى كثير من طبائعهم وشمائلهم . ولا بد للهاشمي ، قبيح الوجه كان او حسنه ، ودميماً كان او بارعاً رائعاً ، ان يكون لوجهه طبائع يتبين بها من جميع قريش ومن جميع العرب ، ولقد كـادت البلدة تنقل ذلك وتبدله ، ولقـد تحيفته وادخلت الضنى عليه وبينت اثرها فيه ، فما ظنك بصنيعها بسائر الاجناس .

قال وليس يؤتي اهلها والطارئون عليها من كثرة الحميات من قبل التخم او من قبل الحبط والاكثار ، انما يؤتون من عين البلدة ، وكذلك جمعت سوق الاهواز الافاعي فى جبلها الطاعن في منازلها ، المطل عليها . والجرارات في منازلها ، ولو كان في العـالم شيء هو شر من الافـاعي والجرارات لما قصرت قصبة الاهواز عن توليده وتلقيحه .

وبليتها ان من ورائها سباخاً ومناقع مياه غليظة وفيها انهار تشقها مسايل كنفهم ومياه امطارهم ومتوضآتهم ، فاذا طلعت الشمس فطال مقامها وطالت مقابلتهـا لذلك الجبل قبل الصخرية التي فيهـا تلك الجرارات . فاذا امتلأت يبساً وحراً قذفت مـا قبلت من ذلك عليهم وقد بخرت تلك السبخ وتلك الانهار ففسد الهواء وفسـد بفسـاده كل شيء .

لقد اورد ابن قتيبة في عيون الاخبار (٢١٩/١ ـ ٢٠) هذا النص

وتربتها[٦١] خلاف تربة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك ان كل من تخرق طرق المدينة وجد رائحة طيبة ليست من الارابيح المعرفة الاسماء[٦٢]

مع حذف ما يتعلق بالهاشمي

واورده ابن الفقيه في كتاب البلدان (مخطوطه مشهد) ؛ ونقله عنه ياقوت في معجم البلدان (٤١٢/١ — ١٣)

وقد ذكر ياقوت عن الاهواز « وقد سكنها قوم من الاشراف فانقلبوا الى طباع اهلها » (٤١١/١)

ان ورود ما يتعلق بالهاشميين ضمن هذا الكلام دليل على انه النص الاكمل المنقول عن كتاب البلدان للجاحظ

وقد اورد الجاحظ في كتاب الحيوان (١٤٠/٤ — ٣) هذا النص ضمن كلامه عن طبائع البلدان الذي اشرنا اليه في المقدمة ، والواقع ان ابن قتيبة نقل النص ضمن النصوص الاخرى عن المدن ؛ ولكننا نعتقد ان الجاحظ كرر في كتاب الحيوان ما ذكره عن الاهواز في كتاب البلدان ، وان ابن قتيبة وابن الفقيه والثعالبي نقلوا النص عن كتاب البلدان . ويحملنا على هذا الاعتقاد هو ان الجاحظ قد يذكر النص الواحد في اكثر من كتابه ، فذكره في كتاب الحيوان لا يمنع من وروده في كتاب **البلدان ؛ ثم ان قطعة من النص وردت في هذا المخطوط المنتخب من** كتاب البلدان ، واخيراً فان النص الذي ورد في كتاب الحيوان مرتبة فقراته بشكل مخالف لما في الكتب المذكورة ، كما ان فيه فقرة اضافية عن الاهواز ، فلو كانت المصادر قد نقلت عن كتاب الحيوان ،لكانت تحافظ على ترتيبه للفقرات ، ولكانت ذكرت الفقرة الاضافية التي في كتاب الحيوان وهي « ولفساد عقولهم ، ولؤم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الاموال الكثيرة ، والضياع الفاشية ، يحبون من البنين والبنات ما يحبه اوساط اهل الامصار على الثروة واليسار ، وان طال ذلك ، والمال منبهة كما تعلمون .

وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين ، ولا يرضى لنسائه مثل الذي كان يرضاه قبل ذلك . وليس في الارض صناعة مذكورة ، ولا ادب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم في شيء منه نصيب وان خس » .

(٦١) في الاصل . فتربتها .

(٦٢) لقد ذكرنا من قبل اشارة الجاحظ الى افساد الاهواز العطور ، بعكس مدينة الرسول الطيبة الرائحة ، وهذا دليل آخر على ان هذا الفصل تناول فيه الجاحظ في الاصل الكلام عن الحجاز .

قال زياد [٦٣]: الكوفة جارية جميلة لا مال لها ، فهي تخطب لجمالها • والبصرة عجوز شوهاء (ذات مال)[٦٤] فهي تخطب لمالها[٦٥]

فصل منـــه

والفرات خير من ماء النيل ؛ واما دجلة فان ماءها يقطع شهوة الرجال ويذهب بصهيل الخيل ، ولا يذهب بصهيلها الا مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها ، وان لم يتبسم النازلون عليها اصابهم قحول[٦٦] في عظامهـم ، ويبس في جلودهم •

وجميع العرب النازلين على شاطيء دجلة من بغـداد الى بلد[٦٧] لا يرعون الخيل في الصيف على اواريهـا[٦٨] على شـاطيء دجلة ، ولا يسـقونهـا من مائها ، لما يخاف عليها من الصرام[٦٩] وغير ذلك من الآفات • واصحاب الخيل من العتاق والبراذين انما يسقونها بسـر من رأى ممـا احتفروها من كارباتهم[٧٠] ، ولا يسقونها من ماء دجلة ، وذلك ان مائها مختلط ، وليس هو ماء واحد ، ينصب فيها من الزابين والنهروانات وماء الفرات وغـير ذلك

---

(٦٣) لطائف المعـارف ١٦٧ عن الجاحظ وفي العقـد الفريد عنـه (٢٤٩/٦) «الكوفة بكر حسناء والبصرة عجوز بخراء اوتيت من كل حلي وزينة .

(٦٤) لطائف المعارف . موسره

(٦٥) لاريب أن هذه الجملة وحدها لا تكفي ان تكـون فصلا ، والراجح انهـا مقتطفة من فصل طويل لا نعلم ما كان يحوي ؛ وقد اوردت الكتب تفاصيل عن خصائص الكوفة وخاصة ابن الفقيه في كتاب البلدان وابن رسته في الاعلاق النفيسة والنويري في نهاية الارب غير اننا لا نملك الدليل على مدى اعتمادهم في ذلك على الجاحظ .

(٦٦) القحول التصاق الجلد على العظام من الهزال (لسان ٧٠/١٤)

(٦٧) « بلد مدينة قديمة على دجله فوق الموصل » وبلد ايضا بليـدة معروفة من نواحي دجيل قرب الحضيرة وحربى من اعمـال بغـداد (يـاقوت ٧١٥/١ ، ٧١٨) وتسمى الاولى اليوم اسكي موصـل ، امـا الثـانية فتحتفظ اليوم باسمها القديم ، والراجح ان الجـاحظ اشـار في النص الى الثانية

(٦٨) الاواري المعـالف وقـد وردت في كتـاب البغـال (رسـائل الجاحظ ٣٢٤/٢) البيان والتبيين ١٧٦/٢

(٦٩) الصرام داء يأخذ رؤوس الدواب (لسان ٢٢٦/١٥) •

(٧٠) ق كربائهم . ولم اهتد الى معناها ؛ كما لم اجـد لمثل هـذه المعلومات ذكراً في كتاب الحيوان خاصة

من المياه ، واختلاف الطعام اذا دخل جوف الانسان من الوان الطبيخ والادام غير ضار ، وان دخل جوف الانسان من شراب مختلف كنحو الخمر والسكر ونبيذ التمر والداذي[٧١] كان ضاراً ، وكذلك الماء لانه متى اراد[٧٢] ان يتجرع جرعاً من الماء الحار لصدره او لغير ذلك ، فأن اعجله امر فبرده بماء بارد ثم حساه ضره ذلك ، وان تركه حتى يفتر ببرد الهواء لم يضره • وسبيل المشروب غير سبيل المأكول ، فان كان هذا فضيلة مائنا على ماء دجلة فما ظنك بفضله على ماء البصرة وهو ماء مختلط من ماء البحر ومن الماء المستنقع في اصول القصب والبردي • قال الله عز وجل « هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج[٧٣] » والفرات اعذبها عذوبة وانما اشتق الفرات لكل ماء عذب من فرات الكوفة •

فصل منه
في ذكر البصرة

وكان يقال الدنيا بصرة[٧٤]

وقال الاحنف لاهل الكوفة : نحن اغذ منكم برية واعظم منكم بحرية وابعد منكم سرية[٧٥] واكثر منكم ذرية

وقال الخليل بن احمد في وصف القصر المذكور بالبصرة[٧٦]

زر وادي القصر نعم القصر والوادي لابد من زورة من غير ميعاد
ترقى بها[٧٧] السفن والظلمان واقفة والضب والنون والملاح والهادي

«ومن[٧٨] اتى هذا القصر ، واتى قصر انس[٧٩] ، رأى ارضا كالكافور

---

(٧١) ورد ذكر السكر والداذي في كتاب البخلاء (١١٤ طبعة الحاجري) .

(٧٢) ق يحذف

(٧٣) سورة الفرقان الاية ٥٣

(٧٤) في الاصل « كان يقال الدنيا والبصرة » والتصليح من لطائف المعارف ص ١٦٧

(٧٥) النص ورد في عيون الاخبار ٢١٧/١ لطائف المعارف ١٦٧ — ٨ .

(٧٦) النص والشعر ورد في عيون ٢١٧/١ ولكن اوله « وقال الخليل في ظهر البصرة مما يلي قصر أوس من البصرة ، وكذلك في لطائف المعارف ولكنه يضيف بيتاً آخر بينهما

زره فليس له شيء يشاكله من منزل حاضر ان شئت او باد

(٧٧) عيون ، لطائف ترفا به

(٧٨) النص نقله ثمار القلوب ص ٥٢٨ عن الجاحظ وكذلك لطائف المعارف ١٦٨

(٧٩) ثمار لطائف الوادي ورأى القصر هذا .

وتربة ثرية ، ورأى ضبا يحترش ، وغزالا يقتنص[٨٠] ، وسمكا يصطاد ، ما بين صاحب شص ، وصاحب شبكة ، ويسمع[٨١] غناء ملاح (على سكانه[٨٢]) وحداء جمال (على[٨٣])بعيره »

(قالوا وفي اعلى جبّانة [٨٤]) البصرة موضع يقال له الحزيز (يذكر[٨٥]) الناس انهم لم يروا قط « هواء اعدل ولا نسيما ارق ولا ماء اطيب منهـا في ذلك الموضع[٨٦]

وقال جعفر بن سليمان : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العـراق ، والمربد عين البصرة ، وداري عين المربد[٨٧] » •

وقال ابو الحسن وابو عبيدة بصرت البصرة سنة اربع عشـرة وكوفت الكوفة ستة سبع عشرة •

فصـــل منـــه

زعم اهل الكوفة ان اهل البصرة اسرع الارض[٨٨] خرابا ، واخبثها ترابا ، وابعدها من السماء،واسرعها غرقا،ومغيض مائها البحر ثم يخرج ذلك الى[٨٩] البحر الاعظم • وكيف تغرق[٩٠] وهم لا يستطيعون ان يوصلوا ماء الفيض[٩١] الى حياضهم الا بعد ان يرتفع ذلك الماء في الهواء ثلاثين ذراعاً في كل سـقاية بعينها لا بحوض بعينه •

وهذه ارض بغداد ، في كل زيادة ماء ينبع الماء في اجواف قصـورهم

---

(٨٠) ثمار ضباباً تحترش وغزالا •

(٨١) ثمار لطائف وصيادا وسمع

(٨٢) ثمار خلف

(٨٣) ثمار خلف

(٨٤) النص نقله ثمار القلوب ٦٣٨ واوله قال الجاحظ في مدينة •

(٨٥) ويقال ان

(٨٦) يضيف الثعالبي « وكان امية بن عبدالله بن خالد يقول : ما آسيت على العراق الا على ثلاث خلال : ليل الحزيز ، وقصب السـكر ، وحديث ابن ابي بكر » (ثمار القلوب ٦٣٨) وقد وردت هذه العبارة في البيـان والتبيين ٢/١٩٦

(٨٧) عيون الاخبار ٢١٧/١ لطائف المعارف ١٦٧

(٨٨) ق (الارض) •

(٨٩) ق يحذف

(٩٠) ل (يعرف)

(٩١) ل (المفيض) والفيض نهر في البصرة كان يمر بين بيوتها •

الشارعة بعد احكام المسنيات (٩٢) التي لا يقوى عليها الا الملوك ، ثم يهدمون الدار التي على دجلة فيكنسون بها تلك السكك ، ويتوقعون الغرق في كل ساعة .

قال وهم يعيبون ماء البصرة (٩٣) ، وماء البصرة رقيق قد ذهب عنه الطين والرمل المشوب بماء بغداد والكوفة ، لطول مقامه بالبطيحة ، وقد لان وصفا

وان قلتم ان الماء الجاري (٩٤) أمرأ من الساكن ، فكيف يكون ساكنا مع تلك الامواج العظام والرياح العواصف والماء المنقلب من العلو الى الاسفل (٩٥) ومع هذا انه اذا صار من مخرجه الى ناحية الدير (٩٦) ونهر ابي الاسد وسائر الانهار ، واذا بعد من مدخله الى البصرة من الشق القصير ، جرى منقضاً الى الصخور والحجارة فراسخ وفراسخ حتى ينتهي الينا .

ويدل على صلاح مائهم كثرة دورهم ، وطول اعمارهم ، وحسن عقولهم ، ورفق اكفهم ، وحذقهم لجميع الصناعات ، وتقدمهم في ذلك لجميع الناس ، ويستدل (٩٧) على كرم طينهم ببياض كيزانهم ، وعذوبة الماء البائت في قلالهم وفي لون آجرهم كانما سبك من مح بيض (٩٨) ، واذا رأيت بناءهم وبياض

---

(٩٢) ق المبنيات

(٩٣) جاء في عيون الاخبار « وكان زياد يقول مثل الكوفة كمثل اللهاة يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، ومثل البصرة كالمثانة يأتيها وقد تغير وفسد » (٢٢٠/١) انظر ايضا لطائف المعارف ١٦٧ العقد الفريد ٢٤٩/٦ ، ويبدو ان الجاحظ في كتابته عن المياه يرد على هذه العبارة التي يلاحظ انها لم ترد في مخطوطتنا ، ولعلها مما اسقطه الناسخ اذ ان عيون الاخبار ولطائف المعارف يذكرانها ضمن النصوص التي نقلوها عن الجاحظ حول البصرة

(٩٤) ق (الحاري)

(٩٥) ل (العوالي الى الاسفل)

(٩٦) في النسختين (الدار) ؛ ولم نجد في المصادر ذكراً لمكان اسمه الدار في هذه المنطقة .

ومن المعلوم ان دجلة بعد خروجه من البطائح ، تخرج منه انهار تتجه نحو البصرة منها نهر ابي الاسد ، ونهر المراة ، ونهر الدير ، وبثق شيرين ، ونهر معقل .

فاما نهر ابي الاسدة ، الذي ذكره الجاحظ اعلاه ، فقد حفره ابو الاسد وهو من قواد المنصور اما نهر الدير فكان يقع على فوهته نهر الدهدار (انظر مقالي عن خطط البصرة المنشور في مجلة سومر سنة ١٩٥٣ ص ٧٧

(٩٧) ق يدل

(٩٨) ل (مخ بيض) ق (مخ ابيض)

الجص الابيض بين الآجر الاصفر لم تجد لذلك شبها اقرب من الفضة بين تضاعيف الذهب[٩٩] ، فاذا كان زمان غلبة ماء البحر فأن مستقاهم من العذب الزلال الصافي النمير في الابدان على اقل من فرسخ ، وربما كان اقل من ميل[١٠٠] .

ونهر الكوفة الذي يسمونه انما هو شعبة من انهار الفرات ، وربما جف حتى لا يكون لهم مستقى الا على رأس فرسخ[١٠١] واكثر من ذلك ، حتى يحفروا الآبار في بطون نهرهم ، وحتى يضر ذلك بخضرهم واشجارهم ، فلينظروا ايما أضر وايما اعيب ، وليس نهر من الانهار التي تصب[١٠٢] في دجلة الا هو اعظم واكبر واعرض من موضع الجسر[١٠٣] من نهر الكوفة وانما جسره سبع سفاين ، لا تمر عليه دابة ، لانها جذوع مقيدة بلا طين ، وما يمشى عليه الماشى الا بالجهد ، فما ظنك بالحوافر والخفاف والاظلاف[١٠٤]

وعامة الكوفة خراب يباب[١٠٥] ، ومن بات فيها علم انه في قرية من القرى ورستاق من الرساتيق بما يسمع من صياح بنات آوى وضباح الثعالب

---

(٩٩) يقول الثعالبي « اول من بنى بالجص والاجر بالبصرة » لطائف المعارف ١٧

(١٠٠) كان توفير المياه العذبة الصالحة للشرب من المشاكل التي واجهت ولاة البصرة منذ اوائل انشائها . لان مياه البحر المالحة كانت تؤثر في عذوبة شط العرب ، فكان لا بد لاهل البصرة من الاعتماد على مياه البطيحة التي تقع في اطرافها الشمالية ؛ وقد حفر لهذا الغرض نهر عدي ، ونهر ابن عمر ، لتوفير الماء العذب من البطيحة . انظر ما ذكرته عن الموضوع في مقالي عن خطط البصرة ص ٧٥ – ٧٧

(١٠١) في النسختين (فرس) ولكن المعنى لا يستقيم بها . ولاشارة الجاحظ الى قلة ماء الكوفة اهمية كبيرة في دراسة تاريخ توزيع المياه في العراق ، فمن المعلوم ان الفرات يتشعب الى عدة شعب في هذه المنطقة ، اما كمية المياه في كل شعبة فلم تكن ثابتة . ومن المعلوم ان سدة الهندية انشئت في اوائل القرن العشرين لتنظيم توزيع المياه بين فرعي الفرات الرئيسية بعد ان كاد يجف الفرع الشرقي وهو نهر الحلة .
وانظر في تناقص مياه فرع الكوفة المسعودي : مروج الذهب ١/٢١٥–٢١٦ في الاصل والجسر .

(١٠٢) في الاصل (تخصب) ولكن المعنى لا يستقيم بها

(١٠٣) من الواضح ان هناك كلمة أو جملة ساقطة مما جعل الكلام مبتوراً

(١٠٤) في الكتب اشارات كثيرة الى جسر الكوفة . انظر مقالي « منطقة الكوفه » المنشور في سومر مجلد ١ ص ٢٣٨ غير ان اشارة الجاحظ هنا هي الوحيدة التي تصف حالة الجسر

(١٠٥) (نباب)

واصوات السباع[١٠٦] وانما الفرات دمما[١٠٧] الى ما اتصل به الى بلاد الرقة وفوق ذلك . فاما نهرهم فالنيل[١٠٨] اكبر منه واكثر ماءاً وادوم جرة

وقد تعلمون كثرة عدد انهار البصرة[١٠٩] ، وغلبة الماء، وتطفح الانهـار ، وتبقى النخلة عشرين ومائة سنة وكأنها قدح[١١٠] ، وليس يرى من قرب القرية التي يقـال لهـا النيل[١١١] الى اقصى انهـار الكوفة نخلة طـالت شيـئاً (الا[١١٢] وهي معوجة كالمنجل ، ثم لم نر غارس نخل قط في اطراف الارض يرغب في فسيل لو كان[١١٣] في علمـه بخبث[١١٤] مغرسه وسوء نشوه وفساد تربته[١١٥] ولؤم طبعه[١١٦] .

وليس لليالي شهر رمضان في مسجدهم غضارة ولا بهاء

وليس منار مساجدهم[١١٧] على صور منار البصرة ولكن على صـور

---

(١٠٦) ضباح الثعالب صياحها . ووصف الجاحظ للكوفة يظهر مدى انحلالها في زمنه . ولا بد ان لانشاء بغداد اثر في ذلك . ولم نجد في المصادر من وصف انحلال الكوفة الا الجاحظ

(١٠٧) تقع دمما عند فوهة نهر عيسى الذي ياخذ من الفرات ويصب في دجلة في بغداد جنوبي مدينة المنصور المدورة . وقد ورد ذكر دمما في المصادر (انظر ابن سـيرابيون ١٢٥ الخطيب ١٢٤/١ طبري ١٠/٣ ، ١٦٠٥ وملاحظة الجاحظ طريفة من حيث ان الفرات بعد دمما تتشعب منه عدة انهـار .

(١٠٨) يقتضي سياق الكلام ان يقصد الجـاحظ بالنيل هنـا ، النهر الذي يأخذ من نهر سورا بالقرب من بابل ويتجه شرقا حتى تصب بزائزه في دجلة قرب جبـل ،وتقع على هذا النهـر مدينة النيـل . انظـر سهراب ص ١٢٥ .

(١٠٩) لقد اشارت المصادر الى كثرة انهار البصرة وبالغ بعضهم في عددهـا

(١١٠) القدح السهم قبل ان ينصل ويراش وقال ابو حنيفة القدح العود اذا بلغ فشذب عنه الغصن وقطع على مقدار النبل الذي يراد من الطول والقصر (لسان العرب ٣٩٠/٣) « ونخلة قرواح ملساء طويلة جرداء » وقرواح هي النخلة التي انجرد كربها وطالت (لسان ٣٩٦/٣) ولا ريب ان السياق يقتضي ان تكون بالراء اي انها مستقيمة عالية منتصبة

(١١١) انظر هامش ١٠٨ .

(١١٢) اضافة من عندنا يقتضيها السياق

(١١٣) ق يحذف

(١١٤) ق (بحيث)

(١١٥) ق (طربته)

(١١٦) ل (طريقه) . والجملة مبتورة ولكن لم اهتد الى ما يدل على اصلها

(١١٧) ل (مسـجدهم)

ورأينا بها مسجداً خراباً تأويه الكلاب والسباع هو يضاف الى علي بن ابي طالب ما لو (١١٩) كان بالبصرة لتمسحوا به وعمروه بانفسهم واموالهم وخبرني من بات فيها (١٢٠) انه لم ير كواكبها زاهرة قط وانه لم يرها الا ودونها هفوة : وكأني في مائهم مزاج دهن (١٢١) • واسواقهم تشهد على أهلها بالفقر • وهم اشد بغضاً لاهل البصرة من اهل البصرة لهم •

واهل البصرة هم احسن جوارا واقل بذخاً واقل فخراً • ثم العجب من اهل بغداد وميلهم معهم وعيبهم (١٢٢) ايانا في استعمال السماد في ارضنا ولنخلنا : ونحن نراهم يسمدون بقولهم بعذرة اليابسة صرفاً فاذا طلع وصار له ورق ذروا عليه من ذلك العذرة اليابسة حتى يسكن في خلال ذلك الورق • واذا اراد احدهم (١٢٣) ان يبني داراً فيجيء الى مزبلة : فيضرب منها لبناً : فان كانت داره مطمئنة ذات قعر ، حشا من تلك المزبلة التي لو وجدها اصحاب السماد عندنا لباعوها بالاموال النفيسة ، ثم يسجرون تنانيرهم بالكساحات التي فيها من كل شيء ، وبالأبعار والاخثاء وكذلك مواقد الكيران •

وتمتليء ركايا دورهم عـذرة فلا يصيبون لهـا مكانا فيحفـرون لذلك في

---

(١١٨) يقول الشابشتي في الكلام عن دير القيارة « وله قائم ، وكل دير لليعقوبية والملكية فعنده قائم ـ فاما ديارات النسطور فلا قائم لها » (الديارات ص ٣٠٣ الطبعة الثانية) ويعلق الاستاذ كوركيس عواد ناشر الكتاب على هذه الجملة بقوله « هذه اللفظة (القائم) وردت في كتب الديارات ولم تشر اليها معجمات اللغة ؛ ويؤخذ من بعض النصوص القديمة ان القائم منارة عالية كالمرقب ، ولكن في بعضها الآخر ما يدل على انه لم يكن مرقباً فقط . ولعل اوجه ما يقال فيه انه كان شبه صومعة تتخذ الى جانب بعض الاديار لسكنى احد النساك المعتزلين فيه » ، ومع أن الاستاذ عواد لم يبين شكل القائم ، الا ان الراجح انه كان مربعاً

ويوضح نص الجاحظ وجود نمطين من المنائر ، احدهما في الكوفة وهو على طراز القائم ، والآخر في البصرة ، وبالرغم من اقتضاب النص فانه كالمفتاح لدراسة اوسع عن منائر العراق في القرن الثالث الهجري

(١١٩) في الاصل (ماراً) والمعنى لا يستقيم

(١٢٠) ق يحذف

(١٢١) العبارة غير واضحة ولم اهتد الى الاصل

(١٢٢) ق ونبيهم

(١٢٣) لَ يريد احدهم قَ يريدهم •

بيوتهم آبار حتى ربما حفر احدهم في مجلسه ، وفي انبل موضع من داره فليس يبقى لمن كان كذلك ان يعيب البصريين بالتسميد .

فصــــل منـــه

وليس في الارض بلدة ارفق باهلها من بلدة لا يعز بها[124] النقد ، وكل مبيع بها يمكن ، فالشامات واشباهها الدينار والدرهم بها عزيزان ، والاشياء بها رخيصة ، لبعد المنقل وقلة عدد من يبتاع . ففيما[125] يخرج ارضهم ابداً فضل عن حاجتهم . والاهواز وبغداد والعسكر[126] يكثر فيها الدراهم ويعز فيها المبيع ، لكثرة عدد النـاس وعدد الدراهم . وبالبصرة الاثمان ممكنة والمثمنات ممكنة ، وكذلك الصناعات واجور اصحاب الصناعات[127] ومـا ظنك ببلدة يدخلها في البادي من ايام الصرام[128] الى بعد ذلك بشهر ما بين الفي سفينة تمرا واكثر في كل يوم[129] ، لا يبيت فيها سفينة واحدة ، فان باتت فانما صاحبها هو الذي يبيتها ، لانه لو كان حط في كل الف[130] رطل قيراطاً لاتنسفت انتسافا

ولو ان رجلا ابتنى داراً يتممها ويكملها ببغداد او بالكوفة او بالاهواز او في موضع من هذه المواضع فبلغت نفقتها مائة الف درهم ، فأن البصري اذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين الفاً ، لان الدار انما يتم بناؤها بالطين واللبن وبالاجر والجص والاجذاع والساج والخشب والحديد والصناع[131] . وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن في غيرها . وهذا معروف

---

(124) ق (يغربها)

(125) ل فيما

(126) لقد ذكر الجاحظ العسكر بضع مرات في عدد من كتبه (انظر في ذلك فهارس الاماكن في البيان والتبيين ، والحيوان ، ورسائل الجاحظ طبع عبدالسلام هارون) . وهي قد تحتمل عسكر مكرم في الاهواز ، او عسكر المعتصم اي سامراء ؛ ونحن نرجح ان المقصود بها سامراء لاهميتها آنذاك . ولان ما ذكر في هذا النص اكثر انطباقا عليها منه على عسكر مكرم

(127) اشارت الكتب الى رخص البصرة (انظر ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢٢١/١)
غير ان التفاصيل المذكورة هنا لا توجد في اي مصدر آخر

(128) « ايام الصرام اوان ادراك النخل » لسان ٢٢٨/١٥

(129) ق (عام)

(130) ق يحذف

(131) كذا في الاصل ، ومع انها لا تتسق مع الكلام الا ان لم اعرف اصلها .

ولم نر بلدة قط تكون اسعارها ممكنة[١٣٢] مع كثرة الجماجم بها الا البصرة ، طعامهم اجود الطعام ، وسعرهم ارخص الاسعار ، وتمرهم اكثر التمور ، وريع دبسهم[١٣٣] اكثر ، وعلى طول الزمان اصبر ، ببقاء تمرهم الشهريز[١٣٤] عشرين سنة ، ثم بعد ذلك يخلط بغيره فيجيء له الدبس الكثير والعذب الحلو والخاثر[١٣٥] القوي • ومن يطمع من جميع اهل النخل ان يبيع فسيلة بسبعين ديناراً اوبحونة[١٣٦] بمائة دينار أو جريبا بالف دينار غير اهل البصرة •

فصل منه

قال ولاهل البصرة المد والجزر على حساب منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً • يأتيهم الماء حتى يقف على ابوابهم ، « فان شاؤا اذنوا له[١٣٧] وان شاؤا حجبوه[١٣٨] »

ومن العجب لقوم يعيبون البصرة لقرب البحر والبطيحة ولو اجتهد اعلم الناس وانطق الناس ان يجمع في كتاب واحد منافع هذه البطيحة وهذه الاجمة لما قدر عليها ، قال زياد قصبة خير من نخلة • وبحق اقول لقد جهدت[١٣٩] جهدي ان اجمع منافع القصب ، ومرافقه ، واجناسه ، وجميع تصرفه ، وما يجيء منه فما قدرت عليه حتى قطعته ، وانا معترف بالعجز مستسلم له ، فاما بحرنا هذا فقد طم على كل بحر وأوفى عليه ، لان كل بحر

---

(١٣٢) في الاصل ممكن

(١٣٣) ق (ربس) والدبس عصير التمر وهو مشهور في العراق

(١٣٤) الشهريز من اصناف التمور في العراق . انظر البيان والتبيين ٢/٢٨٣

(١٣٥) ل (الحاثر)

(١٣٦) يقول ابن منظور « بحنة نخله معروفة .. والبحون ضرب من التمر حكاه ابن دريد .. والبحنانة الجلة العظيمة البحرانية التي يحمل فيها الكنعد المالح وهي البحونة ايضا » (لسان العرب ١٦/١٩٠ - ١٩١ ويقول ايضا « الجلة وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر يكنز فيها .. » (لسان العرب ١٣/١٥٦) وسياق الكلام يقتضي ان المقصود بالبحونة هنا الجله من التمر

(١٣٧) ق يحذف

(١٣٨) النص مذكور في لطائف المعارف (١٦٨) عن الجاحظ واول الجملة فيه (ما ظنك بقوم يأتيهم الماء صباحاً ومساءاً) .

ويذكر الهمداني عن الحسن البصري أن المد والجزر من آيات الله بالبصرة (١٩١ - ٢)

(١٣٩) ق (لو اجتهدت)

في الارض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئا الا بحرنا هذا الموصول ببحر الهند الى ما لا تذكر [١٤٠] وانت تسمع بملوحة ماء البحر وتستسقطه وتزري عليه ، والبحر هو[١٤١] الذي يخلق الله تعالى منه الدر الذي يبعث الواحدة منه بخمسين الف دينار ، ويخلق في جوفه العنبر ، وقد تعرفون قدر العنبر ، فشيء يولد هذين الجوهرين كيف يحقر [١٤٢] ولو انا اخذنا خصال هذه الاجمة وما عظمنا من شأنها فقذفنا بها في زاوية من زوايا بحرنا هذا لضلت ، حتى لا نجد لها حساً ، وهما لنا خالصان دونكم ، وليس يصل اليكم منها شيء الا بسببنا[١٤٣] وتعدينا فضل غنا[١٤٤]

وقال بعض خطبائنا نحن اكرم بلاداً واوسع سوراً واكثر ساجا وعاجا وديباجاً واكثر خراجاً[١٤٥] لان خراج العراق مائة الف الف واثنى عشر الف الف وخراج البصرة من ذلك ستون الف الف وخراج الكوفة خمسون الف الف[١٤٦] .

---

(١٤٠) كذا في النسختين . وهي تبدو مبتورة
(١٤١) ق يحذف
(١٤٢) ينقل ثمار القلوب (٥٦٩) قال الجاحظ ما ظنك بماء اذا خبث وملح ولد الدر واثمر العنبر ، وركب بعض الاعراب البحر مرة فرأى اهوالا من امواجه ، ثم اتاه مرة اخرى وهو ساكن فقال ما يضرني حلمك فان عندي من جهلك العجائب
وانظر عيون الاخبار ١٧/١ ، ابن الفقيه ١٩٠. ١٩٢/
(١٤٣) ق (بسينا) ل (بسبنا)
(١٤٤) كذا في الاصل ، ويبدو ان المقصود « وزيادة على حاجتنا » ولكني لم اهتد الى اصل التعبير
(١٤٥) يقول الجاحظ ان هذه الجملة تنتسب الى الاحنف بن قيس ، والى خالد بن صفوان ، والى ابي بكر الهذلي (الحيوان ٢٣٢/٧) .
(١٤٦) انظر المسعودي : مروج الذهب ١٩٥/٥ ابن الفقيه الهمداني : البلدان ٨٥ أ (مخطوطه مشهد) البلاذري : انساب الاشراف ٧٨٨/٤ (مخطوطه القاهرة)

فصل منه في ذكر الحيرة

ورأيت الحيرة البيضاء ، وما جعلها[١٤٧] الله بيضاء ، وما رأيت فيها دارا يذكر الا دار عون النصراني العبادي[١٤٨] ورأيت التربة التي بينها وبين قصبة الكوفة ورأيت لون الارض فاذا هو أكهب كثير الحصى خشن المس

والحيرة ارض باردة في الشتاء ، وفي الصيف ينزعون ستور بيوتهم مخافة احراق السمائم لها .

---

(١٤٧) في النسختين (جعله) .

(١٤٨) في النسختين (العباداني) .

وقد ورد ذكر دار عون العبادي في الطبري الذي روى عن علي ابن محمد عن أبيه انه قال « دخلت على الرشيد في دار عون العبادي فاذا هو في هيئة الصيف في بيت مكشوف .. » (طبري ٣/٧٥٢)

وقد ذكر الشابشتي دار عون وما يقاربه من قصور الحيرة حيث قال « ومن هذه الابنية المسقطات ، وهو قصر فيه ازاج مستطيلة **مسقطه شرقي الحيرة على طريق الحاج ثم القصر ، ثم كوة البقال ، ثم قصر العدسيين ، ثم الاقصى الابيض ، ثم قصر بني بقيلة .. ومن** بعده دار عون ، ثم فيه عصر (كذا) وهي مما يلي النجف ، فهذه قصور الحيرة الباقية الآن » (الديارات ٢٣٩ ــ ٢٤٠) ويتبين من هذا ان دار عون كان قرب النجف وانظر عن الحيرة مقالي « منطقة الحيرة » مجلة كلية الآداب

وذكر الجاحظ « وكان طيمانو رئيس الجاثليق قد هم بتحريم كلام عون العبادي عندما بلغه من اتخاذ السراري فتوعده وحلف لن يفعل ليسلمن » (الحيوان ٤/٢٧)

أبــو سلــوم المعتـــزلي

KITAB AL-BULDAN

By

Amr Ibn Bahr Al-Jahidh

Edited with an introduction and annotations

By

SALEH AHMAD EL ALI (D. Phil. Oxon)

Government Press Baghdad
1970.